منهج الإمامية في فهم النص القــرآني

■ أ. م. د. ستار جبر الاعرجي
كلية الآداب جامعة الكوفة

الخلاصة :

لقد انزل تعالى كتابه الكريم للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وجعله شرعة ومنهاجا ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها تبيانا لكل شي ودستورا لتنظيم أمور العباد ، وجعل السنة شارحة له ، ومبينة لا حكامه وتعاليمه ، وجعل العقل رسولا ثانيا فأسس المنظومة والمرجعيات المشكلة للعقيدة ، ودعى إلى تدبر آياته وانتزاع الحقيقة الكبرى من بين ألاف آياته : انه لا يعتريه نقص ولايعتوره اختلاف (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وأسس لأصول المنهجيات والانعكاسات عن النص ، ونظم أصول فهم دلالاته وكشف معانيه ، ووضع المعايير لمعالجة تعارضاته الظاهرية فرسم منهج تفسيره بان ارجع فهمه إلى رد متشابهاته إلى محكماته . ورده إلى الراسخين في العلم ممن اختصهم الله تعالى بان كشف لهم عن دلالاته .

إن هذا القران يهدي للتي هي أقوم ، وان أي فهم يجب أن يكون انعكاسا عنه لا عكسا عليه لتبقى للنص مرجعيته المركزية كونه الخطاب المركزي والدستور الإلهي .

لقد أسست الدعوة للتفكير والتدبر عند تحققهما لمعيارية مهمة ومنطلقات تاصيلية لطبيعة الرؤية التي يجب أن يستضاء النص لتكوينها حتى تكون مؤهلة لان يقال أنها منظومة عقديّة .

وهذه الصفحات محاولة لكشف منهج الأمامية في فهم النص القراني المنهج الذي التزم هذه المعايير وسار بهديها انطلاقا من الإطار التاريخي للمذهب وأصوله المعرفية المستندة إلى المنابع المؤهلة لكشف دلالات النص وبيان معانية ممثلة في علوم أئمة أهل البيت (عليه السلام) كمصداق للراسخين في العلم والناطقين بلسان الوحي وورثة النازل عليه ﷺ .

الإمامية : البدايات والنشأة

يرى الشيعة والإمامية منهم بالذات نزول العديد من الايات القرآنية في النصّ على الإمام علي عليه السلام منها:

أ. آية المباهلة قوله تعالى ﴿ فمن حاجّك من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (آل عمران/٦١).

ب. آية التطهير قوله تعالى ﴿ انّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (الاحزاب/٣٣).

ج. آية الولاية قوله تعالى ﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ (المائدة/٥٥).

د. قوله تعالى ﴿ انما انت منذر ولكل قوم هاد ﴾ (الرعد/٧).

هـ قوله تعالى ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ (النبأ/١-٢).

و. اية اكمال الدين قوله تعالى ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ (المائدة/٣) وغيرها.

ويرى الإمامية ان الرسول ﷺ نص على امامة علي عليه السلام في مناسبات عدة وبروايات متكثرة من اهمها:

أ. حديث الغدير / قوله ﷺ (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه).

ب. حديث المنزلة قوله ﷺ (انت مني بمنزلة هارون من موسى).

ج. حديث الراية قوله ﷺ (لاعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لايرجع حتى يفتح الله على يده).

د. قوله ﷺ (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار).

هـ حديث مدينة العلم قوله (انا مدينة العلم وعلي بابها).[١]

جاءت هذه النصوص القرآنية والنبوية[٢] في حقّ الإمام علي بن ابي طالب(عليهما السلام) والنصّ على إمامته، وخلافته للرسول ﷺ في قيادة الامة، وبيانا لفضائله، وما يختصّ به من مكانة، وفضل، وصلة بالنبي ﷺ كما يفهمها الشيعة بعامة والإمامية منهم بخاصّة ويشاركهم الرأي في تأكيد بعضها باقي الفرق الاسلامية.

في ضوئها يمثل الإمام علي عليه السلام القطب الذي دارت حوله عجلة التشيّع، وانطلقت اتجاهاته وفرقه المختلفة وهذا مايتأكد من تسمية الفرقة التي اعتمدت هذه الخصوصية، فصارت موالاته واتباعه عنوانا لها، حتى عاد اسما خاصّا، فالشيعة في اللغة: الانصار والاتباع، ولكنّه أخذ لايطلق إلا ويراد به (كلّ من يتولى عليا وأهل بيته (عليهم السلام) حتّى صار اسما خاصّا لهم)[٣].

وهذا ماصارت تتعارف عليه كتب الفرق والعقائد عند دراستها لتاريخ الشيعة وعقائدهم[٤]، حتى أنّ الشهرستاني التفت الى هذا التخصيص فوضع له تحديدا دقيقا إذ يقول: (الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصيةً..)[٥].

إنّ هذا الارتباط يكاد أن يكون ذا اهمية بالغة في تحديد البدايات التاريخية للتشيع، ومظهراً لاولويته في التأسيس باعتباره مذهبا كلاميا له استقلاليته، فضلا عن الاستمرارية التي امتدّت بالمصطلح زمنيا، ليشمل المعنى نفسه من التولي والمشايعة لأولاده وأحفاده من بعده، بل القول بالحصر الذي ينقله الشهرستاني بـ(إن الإمامة لاتخرج من أولاده، وان خرجت فبظلم يكون من غيره،

(١) للتفصيل حول الايات والروايات انظر: مداركها عند الإمامية في المرتضى: الشافي في الإمامة / الطوسي: تلخيص الشافي ج٢ج٣ / العلامة الحلي: الالفين.وانظر ايضاً احمد محمود صبحي نظرية الإمامة ١٧٥-٢٠٩.

(٢) وهي ايضا جزء من الوحي لقوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى ﴾ (النجم/٣-٤).

(٣) ظ: الفيروزابادي: القاموس المحيط ٣: ٤٧، مختار الصحاح: ص٣٤٧

(٤) ظ مثلاً: الأشعري ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٣٣٠ هـ) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ١: ٦٥، تح محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط١ ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ م، المقريزي (تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ): الخطط المقريزية ٤: ١٧٣ ومابعدها مطبعة النيل مصر ١٣٢٤هـ الشهرستاني، الملل والنحل ١: ١٤٦. تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان ١٩٨٠م.

(٥) الملل والنحل ١: ١٤٦.

أو بتقية من عنده)[١].

إلا أنّ الباحثين قدماء ومحدثين قد اختلفوا في تحديد البداية التاريخية للتشيّع رغم هذه الدلالة المهمة في ارتباطه بالإمام علي بن ابي طالب عليه السلام بما يمثل نقطة انطلاق، ويكاد اختلافهم في ذلك ينحصر في تحديدين[٢]:

الأول: نشوءه في حياة النبي صلى الله عليه وآله ويورد اصحاب هذا القول – دليلا – عشرات الروايات التي يستدلّ بها الشيعة على أحقّية علي عليه السلام بالإمامة والخلافة التي كانت دافعا لكثيرٍ من الصحابة والتابعين فيما بعد لمشايعة علي عليه السلام وتوليه ؛ ليتحقّق فيهم المعنى اللغوي للتشيّع، فكانوا أنصاره واتباعه، ثم ليتوسع ذلك فيما بعد الى اتجاهٍ فكريّ رئيس على الساحة الفكرية والعقائدية في الحضارة الاسلامية.

الثاني: يرى أن البداية كانت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وقد اختلفوا في نقطة البداية على خمسة آراء بين القول إنّها يوم السقيفة، أو يوم الدار، أو يوم الجمل، أو يوم صفين، أو بعد مقتل الإمام الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام.

والشيعة بعامّة متفقون على القول الأول، وهو مايعضده معنى لفظ الشيعة وارتباطه بعليٍّ عليه السلام بتخصيصه ابتداءً بمشايعيه وأصحابه ومؤيّديه. يؤكد السجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد ت: ٢٠٥ هـ) هذا الرأي بقوله (إن أول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله هو الشيعة..)[٣].

وأيّد النوبختي (أبو محمّد الحسن بن موسى) هذا المعنى إذ حدد أصول جميع الفرق باربعة، فالشيعة منهم: (هم فرقة علي بن ابي طالب، المسمون بشيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه وآله، وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته)[٤].

والمهم في هذا كلّه إن الشيعة انقسمت على فرق منها الكيسانية والزيدية والاسماعيلية والإمامية[٥]. وانقسمت كل فرقة منها بدورها على فرقٍ متعددة، حتى بالغ بعض الباحثين فاوصل مجموعها الى ثلاث مئة فرقة[٦]، وعدّها المعتدلون بنحو عشرين[٧]، وقد انقرض أغلب هذه الفرق التي تنسب الى الشيعة، ويستغل ذكرها لتشويه صورتهم، واستهجان عقائدهم، على الرغم من أن عقائد تلك الفرق وآراء اصحابها دالّة بوضوح على أنها لاتتصل من قريب ولابعيد بالإسلام[٨] فضلا عن الصلة بالتشيّع الحقيقي باعتباره مذهبا ينطلق من أُسس الاسلام وأصوله ومفاهيمه المحدّدة في الكتاب الكريم وما استنبطه أئمة اهل البيت عليهم السلام منه وفصله اقطاب المذهب ومفكروه في مصنفاتهم وكتبهم المعتبرة البعيدة عن كل مايتعارض مع أصول الاسلام[٩].

ولا ادلّ على الانفصال والبعد بين التشيع الحقيقي وتلك الفرق ممّا قام به الأئمة عليهم السلام من التنديد بها، وتكفير بعض اتجاهاتها، والتبرّي من مقالاتها على رؤوس الأشهاد، والتشديد على أصحابهم وشيعتهم بالابتعاد عنها، وتكذيب مقالاتها[١٠]، ممّا اوردته كتب العقيدة التي تمثل التشيّع الحقيقي.

ولم يبقَ من فرق الشيعة – في الوقت الحاضر – إلا ثلاث هي: الزيدية والاسماعيلية والإمامية الاثنا عشرية[١١] بحيث ينصرف الذهن إليهم وحدهم حين يقال: الشيعة.

وهذا الفصل سيحاول فيه الباحث ان يبين أُسس المنهج الفكري للامامية وأصوله – وهو المصطلح الذي سيسير عليه البحث للاشارة إليهم – والتعرّف على آليات فهم النصّ عندهم وهو مايستدعي إشارة ولو مختصرة إلى بدايات جذور الإمامية لما لذلك من صلة بأبعاد ومفاهيم تشكّل ركائز مهمة في المنهج الفكري، وإنما يميل البحث هنا للاختصار نظرا لتفرّع العديد من المصادر المعتبرة القديمة والحديثة للبحث في تلك الجذور والبدايات التاريخية[١].

ولابدّ ابتداءً من الاشارة الى ان الفرقتين الأخريين – الباقيتين مع الاثني عشرية – وهما الزيدية والاسماعيلية تشتركان معها في قولهما بالإمامة وان اختلفنا عنها في تفاصيل الاعتقاد بها، وعدد الأئمة، ومن تنتهي عنده الإمامة.

فالزيدية يقولون بامامة علي بن ابي طالب والحسن والحسين عليهم السلام وزيد بن علي بن الحسين ثم إمامة كلّ فاطمي دعا الى نفسه وكان على ظاهر العدالة)[٢].

أمّا الاسماعيلية فهم القائلون بانتهاء الإمامة الى اسماعيل الابن الاكبر للإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو الإمام السابع في سلسلة الأئمة عندهم ولهذا يسمّون أيضا بالسبعية كما يسمّون بالباطنية[٣]. وإسماعيل هذا لاتعترف الإمامية الاثنا عشرية بإمامته وتقول إنه توفي في حياة أبيه جعفر الصادق عليه السلام. وأما عند الإمامية الاثني عشرية فإن سلسلة الإمامة تبدأ بعلي بن ابي طالب عليه السلام وتنتهي بمحمد بن الحسن العسكري المهدي المنتظر عليه السلام.

وممّا يجب التنبيه إليه ماوقع فيه كثيرٌ من الباحثين في تاريخ الفرق وعقائدها من اشتباه وخلط وتعميم بإلغائهم الفوارق والحدود الواضحة الفاصلة بين الإمامية الاثني عشرية – وهم أكثرية الشيعة اليوم – والفرق الأخرى المنقرضة أو المنفصلة التي فَقَدَ أغلبها أيّة صلة له بالإسلام كالغلاة.

(١) المصدر نفسه.
(٢) ظ البغدادي: الفرق بين الفرق ١٥ دار الافاق الجديدة بيروت ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م، الشهرستاني: الملل والنحل ١: ١٤٧ الحسني (هاشم معروف): الشيعة بين الأشاعرةوالمعتزلة ٢٨ دار القلم، بيروت ط١ ١٩٧٨م.
(٣) انظر الشيعة وفنون الاسلام ص ٢٨ ومصادره.
(٤) فرق الشيعة ص٣٦، المطبعة الحيدرية، النجف ط٤ ١٣٨٩ هـ– ١٩٦٩م.

(١) انظر مثلا: المفيد: اوائل المقالات، النوبختي: فرق الشيعة، محمد حسين كاشف الغطاء: اصل الشيعة واصولها، حسين علي محفوظ: تاريخ الشيعة، عبد الله فياض: تاريخ الإمامية واسلافهم من الشيعة، وغيرها.
(٢) ظ: النوبختي: فرق الشيعة ٧٠، المفيد: اوائل المقالات ٤٤.
(٣) ظ: الشهرستاني: الملل والنحل ١: ١٦٨.

(٥) ظ: الشهرستاني: الملل والنحل ١: ١٤٦ مابعدها
(٦) المقريزي: الخطط ص١٧٣.
(٧) ظ مثلا: الأشعري: مقالات الاسلاميين ١: ٦٥ومابعدها، الاسفراييني تفاصيل المصدر: التبصير في الدين ١٥.
(٨) يقول عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ): (فما هم من الاسلام وان كانوا منتسبين اليه)، انظر: الفرق بين الفرق ص١٧ تحقيق لجنة احياء التراث، دار الجبل ودار الافاق الجديدة، بيروت ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.
(٩) انظر مثلا الشيخ المفيد (محمد بن محمد بن النعمان ت ٤١٣) اوائل المقالات في المذاهب المختارات، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦): الفصول المختارة من العيون والمحاسن، ومجموعة في فنون علم الكلام، الطوسي (ابو جعفر محمد بن الحسن ت ٤٦٠ هـ): الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد والغيبة، العلامة الحلي (الحسن بن يوسف ت: ٧٢٦ هـ): مناهج اليقين في اصول الدين، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد.
(١٠) انظر مثلا الطبرسي (أبا منصور احمد بن علي بن ابي طالب توفي في حدود ٦٢٠ هـ): الاحتجاج ٢: ٢١٣ مؤسسة النعمان، بيروت لبنان ١٣٨٥ هـ
(١١) ظ: النوبختي: فرق الشيعة ص١٦، الأشعري (سعد بن عبد الله ت ٣٠١ هـ: المقالات والفرق ص١٠٢ طبع طهران ١٩٦٣.

بل أنّ بعض الباحثين تعدّى ذلك إلى وصم الشيعة بآراء فردية تبناها بعض الاشخاص منفردين، فصارت في نظر أولئك الباحثين – قدماء ومحدثين – آراء وعقائد للشيعة، تسجّل في كتب الفرق وتعدّ في ضمن المذاهب الكلامية.

وهذا ماتنبّه اليه بعض الباحثين المحدثين وعدّه من قبيل (التشويه المخزي.. والأحكام التعسفية التي أطلقها البعض على الشيعة)[٤] ، لذا فإنّ الأمانة العلمية والبحث الموضوعي يستدعيان من الباحثين الالتفات الى هذه القضية الخطيرة، وتحديد المصطلح تحديداً علميا، واعتماد كتب الإمامية الاثني عشرية عند الحديث عن ارائهم ومعتقداتهم. يقول الإمام الغزالي (إن الوقوف على فساد المذاهب قبل الاحاطة بمداركها محال، بل هو رمي في العماية والضلال)[٥].

ولو شئنا استخلاص تصور تاريخي من مجمل ماكتب عن نشأة الإمامية لوجدنا على الرغم من أن مصطلح الإمامية تأخّر في الظهور حتى (أواخر القرن الثالث الهجري)[٦] حين بدأت الفرقة في التميز من غيرها، وصارت آراؤها تطرح في الساحة الفكرية من أقطابها ومتكلميها ويتوضح انفصالها عن باقي فرق الشيعة، على الرغم من هذا التأخر فإن جذورها الفكرية وأُسس عقائدها تمتدّ كما يرى كثير من العلماء الى عصر الرسالة وإن بذرتها (وضعت مع بذرة الاسلام من قبل صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله نفسه)[٧].

الفصل الأول
تأسيس الأئمة عليهم السلام لأصول منهج فهم النص القرآني

توطئة

إن الباحث في الارث الغني الذي تركه الأئمة من اهل البيت عليهم السلام في جهدهم التفسيري للنص القرآني من أجل استكناه الأصول

(٤) ظ. د: عرفان عبد الحميد: دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية / ١٧– ٢١ دار التربية، بغداد، ١٩٧٧م.
(٥) نقلا عن المصدر نفسه (المقدمة).
(٦) عبد الله فياض: تاريخ الإمامية / ٨٣.
(٧) محمد حسين كاشف الغطاء: اصل الشيعة واصولها / ١٠٩، المطبعة العربية، القاهرة، ١٣٧٧ هـ

والأُسس التي رسخوها باعتبارها إضاءاتٍ يفهم منها النص، وتؤشر دلالاته، يلاحظ أنّ هذا الجهد يتخذ مسلكين مهمين:

١- المسلك المنهجي ويستند: أولاً: إلى أهليتهم عليهم السلام للتأسيس والتأصيل ومن ثمّ تفسير النص فعليا ويتضح ذلك من خلال مايختصون به من صفات ومميزات متفردة تعطيهم هوية الاهلية الكاملة للبحث في النص بل كونهم جهةً مقابلة له كما سيتبين في اعتقاد الإمامية مصداقا لحديث الثقلين.

وثانيا: الى وضع الضوابط وتأصيل القواعد التي ينطلق في ضوئها المفسّر لكشف دلالات النص، وآفاق التعامل معه، والنظر اليه، والموقف بازاء مجموعة مغاليق مهمة في النصّ لا تُكشف لكلّ أحد، يمثل النفاذ منها المفاتيح التي تشرع أبواب الفهم في وجه المفسر، ليعود النص ناطقا فاعلا، ويتخذ موقعه الصحيح بوصفه محوراً تدور حوله الافهام المختلفة، وليس تابعا متخلفا عن مكانته، يدور في افلاكها على الرغم من اختلافها بل تناقضها أحياناً.

٢- المسلك التطبيقي: الذي يستقري ماورد عنهم عليهم السلام من نصوص وروايات لتفسير النصّ القرآني، واستنطاق آياته، وكشف معانيه، وستتبين من ذلك أنواع المناهج التي وردت في تفسيرهم عليهم السلام، ومثلت تأصيلا للاتجاهات التفسيرية للنصّ ، ومؤشراً في تحديد أساليب الكشف عن دلالاته، وهذا المبحث سيخوض في آفاق واسعة، وامتدادات يقتضي تتبعها للوصول إلى الهدف الذي عُقِد لأجله، لذا سنجد أنّ البحث فيه واسع يقتضي التوسّع الذي لامفر منه في التفاصيل المبحوثة في مطالبه.

المبحث الأول: المسلك المنهجي

المطلب الأول: أهلية التأسيس

تقوم المنظومة الكلامية (العقائدية) للإمامية على أساس مجوعة ثوابت وركائز تمثل الأصول التي يرجع إليها لبيان الاعتقادات في أصول الدين، ومن تلك الثوابت المهمة خصوصية الأئمة من اهل البيت عليهم السلام ومرجعيتهم في هذا البيان، وهذه المرجعية تنطلق أساسا من خصوصية علمهم وما يتفردون به من انواع المؤهلات.

تعتقد الإمامية على نحو الاجماع عند متكلميها باشتراط أن يكون الإمام أعلم أهل زمانه وتتمثل حدود هذه الاعلمية عندهم في (وجوب كونه عالما بجميع ما إليه الحكم فيه)[١] وإذا علمنا أنّ للإمام عليه السلام الولاية العامّة في أمور الدنيا والدين تبيّن لنا مدى السعة المفتوحة لآفاق علم الإمام التي يعللها الشريف المرتضى بأنّها (وجوب كونه أعلم الناس إذ لو لم يكن عالما لم يؤمنْ أن يَقلب الاحكام والحدود وتختلف عليه القضايا المشكلة فلا يجيب عنها أو يجيب عنها بخلافها)[٢].

وقد ورد عنهم عليهم السلام مايشير إلى علمهم وحدوده وآفاقه ففي الكافي للكليني روي عن الإمام الباقر عليه السلام (ت: ١١٤ هـ) انه قال في تفسير قوله تعالى ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ (الزمر/٩): انما نحن الذين يعلمون[٣].

ونجد تحديد ملامح هذا العلم في ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ت: ١٤٨ هـ) إذ يقول (إنّا اهل بيت، عندنا معاقل العلم، وآثار النبوة، وعلم الكتاب وفصل مابين الناس)[٤] وأمّا حدود هذا العلم فيقول عليه السلام عنها:(والله لقد أعطينا علم الأولين والآخرين)[٥].

ومن أوجه ذلك العلم أنّهم يعلمون أيضا مافي الكتب السماوية الاخرى فضلاً عن القرآن الكريم وهو ما تؤكده الرواية المتفق على نقلها بين كتب الفرق المختلفة عن الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام أنه قال (لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم)[٦].

هذه السعة في علم الأئمة يعلّلها الإمام الصادق عليه السلام بطبيعة مهمة الإمامة في ماروي عنه من حديث طويل حين سأله بريهة قال (جعلت فداك أنّى لكم التوراة والانجيل وكتب الانبياء؟ –

(١) ظ الشريف المرتضى: الناسخ والمنسوخ (مخطوط) مكتبة الامام امير المؤمنين عليه السلام العامة (٥/١٣٨٦)، الطوسي: الاقتصاد ٣١٠، العلامة الحلي: الالفين في امامة امير المؤمنين ١٢٤.

(٢) انظر: المحكم والمتشابه ٧٩- ٨٠ طبع حجر ايران ١٣١٢ هـ

(٣) ظ الكافي (الاصول) ١: ٢١٢، دار الكتب الاسلامية، طهران.

(٤) المفيد: الاختصاص ٣٠٣ المطبعة الحيدرية – النجف الاشرف ط١ ١٣٩٠ هـ – ١٩٧١ م.

(٥) ابن شهر آشوب (محمد بن علي ت: ٥٨٨ هـ): مناقب آل ابي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ط١، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٦ م.

(٦) البحار ٨٩: ٨٧، تفسير العياشي ١: ١٥، القوشجي (علاء الدين علي بن محمد (ت: ٧٨٩): شرح تجريد الكلام، طبع حجر ايران ١٣٠١ هـ

وذلك بعد ما حاججه الإمام بنصوصها – فقال عليه السلام: هي عندنا وراثة نقرؤها كما قرأوها ونقولها كما قالوها، إن الله لايجعل حجّة في أرضه يُسألُ عن شيءٍ فيقول لا أدري..)[١].

وقد توسع متكلمو الإمامية في إثبات هذا المفهوم والاستدلال عليه باعتباره واحداً من أهم أُسس عقيدتهم في الإمامة وشرطٌ لازمٌ لها. يقول الشيخ الطوسي[٢]: (وممّا يدل على أنّ الإمام يجب أن يكون عالما بجميع أحكام الدين ماثبت من كون الإمام حجّةً في الدين وحافظًا للشرع).

ومدى علمه ومرتبته في زمان وجوده تتمثل في (أنّ لايكون هناك من هو أعلم منه ؛ لأنّه هو الحجة على العباد فوجب أن يكون أعلم الخليقة) كما نقل المسعودي عن الإمامية[٣].

ومن أجلى مصاديق علم الأئمة عليهم السلام بهذه الحدود ماتمثل في علمهم بالقرآن وتفسيره وتأسيس أصول العقيدة انطلاقا من آياته الكريمة، بل إن الأئمة عليهم السلام في نظر الإمامية هم عدل القرآن لن يفترقوا عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها كما يفهم من الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله (إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض)[٤].

وتتحدّد العلاقة بينهما من الرواية الأخرى عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام في حديثه عن أهل البيت: (وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمّته والثاني كتاب الله فيه تبيان كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فالمعوّل علينا في تفسيره لانتظنا تأويله بل نتيقّن حقائقه فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله مقرونة)[٥].

فهم عليهم السلام وحدهم العارفون بمحكم الكتاب ومتشابهه وإذا كان غيرهم يشاركهم في فهم المحكم فإنّ المتشابه ممّا لايعرف تأويله معهم أحد كما هو مقتضى الروايات عنهم فهم وحدهم الراسخون في العلم الذين وصفتهم الآية فقد روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال في تفسير قوله تعالى ﴿ ..ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم ﴾ (آل عمران/٧): (هو أمير المؤمنين والأئمة[٦] صلوات الله عليهم وطريقهم الى هذه المعرفة الالهام أو التلقي والوراثة عن الرسول صلى الله عليه وآله كما يصفه الشيخ الطوسي[٧].

فعلم الأئمة بالقرآن بعامّة والمتشابه منه بخاصة مستمدّ من هذا الطريق كما هو مدلول الرواية عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير آية المتشابه قال (فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وماكان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلم تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله)[٨] هذا الرسوخ يراه الإمامية أجلى مصاديق خصوصية الأئمة عليهم السلام في فهم القرآن حق فهمه وهو المعبر عنه في نصّ القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ لايمسّه الا المطهرون ﴾ (الواقعة/٧٩) وهم يؤكدون هذا الاختصاص بتفسير القرآن بعضه ببعض ليستدلّوا على اختصاصهم بصفة التطهير وذلك في قوله تعالى ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهر كم تطهيرا ﴾ (الاحزاب/٣٣).

والطهارة المقصودة في الآيتين (طهارة نفس الانسان في اعتقادها وارادتها، وزوال الرجس عن هاتين الجهتين، ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقّة.. من غير تمايل إلى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم، وهذا هو الرسوخ في العلم)[٩].

وهذا الامر يمثل ركيزة الأهلية الكاملة لتفسير النص القرآني في اعتقاد الإمامية وهو ماتؤكده طبيعة المعية بين أهل البيت عليهم السلام والقرآن في حديث الثقلين إذ مقتضى الحديث إنهم عليهم السلام العالمون بتفسيره، وتأويله، وظاهره، وباطنه، وعدم انفكاك احدهما عن الاخر.

وقد تصدّى الأئمة عليهم السلام لتأكيد هذه الصلة فضلا عن تأكيد الأهلية الخاصة بهم في استيعاب واستكناه معانيه واستنطاق آياته لتعبر عن نفسها فيعود كشفهم لمعاني الايات وصولا إلى مراد الله تعالى منها وهو ماتؤكده الروايات الواردة عنهم في بيان انهم هم الراسخون في العلم الذين قصدتهم الآية أو في الأقل أنّهم أجلى المصاديق التي ينطبق عليها معناها فهم لايغيب عنهم شيء من

(١) الصدوق: التوحيد ٢٧٥.

(٢) تلخيص الشافي ١: ٢٧١ تعليق السيد حسين بحر العلوم مطبعة الاداب، النجف، ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٣ م.

(٣) ظ: مروج الذهب ٣: ١٥٦ القاهرة ١٩٥٨ م.

(٤) مسند الإمام احمد ٣: ١٧، صحيح مسلم ٣: ٣٧، سنن الترمذي ٥: ٣٢٨، الصدوق: اكمال الدين ٣٧٢ طبع حجر طهران د. ت.

(٥) الطوسي: الامالي ١: ١٢١ مطبعة النعمان / النجف ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م.

(٦) اصول الكافي ١: ٤١٥.

(٧) تلخيص الشافي ١: ٢٥٣.

(٨) المجلسي: البحار ٧: ٣٩.

(٩) الطباطبائي: الميزان ٣: ٥٤ –٥٥.

علم الكتاب اذ يعلمونه كله. أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك ﴾ (النمل/٤٠) قال: (وعندنا والله علم الكتاب كله)[١].

ولابد للكشف عن حقيقة هذه الأهلية – وتأكيد واقعيتها في إظهار الفهم الإمامي لها – من الكشف عن الطريق في حصول علم الأئمة عليهم السلام بعد أن تعرّفنا طبيعته وحدوده.

طريق علم الأئمة عليهم السلام :

بانعام النظر في مصدرين رئيسين في الفكر الإمامي وهما:

أ– الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام.

ب– كتب متكلمي الإمامية وعلمائهم، تتبلور أمامنا مجموعة طرائق تمثل المعين الذي يستقي منه الإمام علمه تتمثل في:

١. الاخذ عن الرسول الكريم ﷺ : قال الشيخ الطوسي (الإمام لايكون عالما بشيء من الاحكام الا من جهة الرسول ﷺ وأخذ ذلك من جهته)[٢].

ويكون هذا الاخذ عنه إما من الكتاب الكريم الذي يتلقاه وحيا أو ماورد عنه ﷺ من الأحاديث الشريفة وهم عليهم السلام أفضل الاسانيد في نقلها ولذلك فهم يحكمون بصحّة أي حديث إذا وافق سنة النبي ﷺ والا ترك. قال الإمام الصادق عليه السلام (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ والا فالذي جاءكم به أولى به)[٣].

٢. الإمام السابق إلى اللاحق: إذ يكون كل امام مصدرا في تلقين العلم إلى من بعده[٤].

يرى الإمامية ان هذا الطريق هو سبيل الإمام إلى العلم في حال استجد شيء للامام لم يتبين من الطريقين السابقين وهذا الطريق يتمثل في ان للامام قوة قدسية يتلقى بها الإلهام أودعها الله تعالى فيه (فمتى توجه إلى شيء أو شاء ان يعلمه على وجهه الحقيقي (فانه) لايخطيء فيه ولايشتبه)[٥] إذ ان تلك القوة القدسية تكون عنده في غاية الكمال وتحجبه عن الحاجة إلى غيره وسلوك السبيل التحصيلي النظري، أو الحاجة إلى البراهين والاستدلالات العقلية التي يتبعها غيره في سبيل تحصيل العلم فمن لوازم إمامته أن لايسأل عن شيء فيقول لا أعلم، وأن لايحتاج في علمه إلى أحد غيره وإلا لزم الدور وهو باطل. وقد وردت العديد من الروايات عن الأئمة عليهم السلام في أنّ الإمام يعلم حين يشاء أن يعلم[٦].

ومن استعراض صور العلم عند الأئمة عليهم السلام نلاحظ انها تتخذ صورتين[٧]: فهو فِعْليٌّ مرةً يستمد من الرسول ﷺ الذي طريقه الوحي أو من الإمام السابق، وإرادي أخرى بمعنى أنّ الإمام إذا أراد أن يعلم شيئا يعلمه بعد أن لم يكنْ عنده بمعنى أنه لايعلمه قبل الارادة.

المطلب الثاني: جهود الأئمّة عليهم السلام في خدمة القرآن والعقيدة:

ان المتصدي لاستعراض تاريخ الأئمة عليهم السلام وصلتهم بالقرآن الكريم يتلمّس بوضوح أهمية جهودهم عليهم السلام في التصدي لتفسير النصّ، وبيان معانيه، واستنطاقه ليتبين بوضوح خصوصية أهليتهم المتفردة، ابتداءً من أولهم الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام حتى آخرهم عليهم السلام.

فممّا لايسع منكر أن ينكره أفضلية علي عليه السلام وسعة علمه بالقرآن، وأولويته وأسبقيته إلى تأويله وقربه من ينبوعه الأصيل ولصوقه به فهو الباب الذي تنبثق منه ينابيع العلم ويطلع منه على آفاقه المطلقة من مصدر الوحي، روى عبد الله بن عباس عن الرسول ﷺ أنّه قال (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت من الباب)[٨].

واذا كان محمد ﷺ الناطق بلسان الوحي وطريق تلقيه عن السماء ﴿ وماينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ﴾ (النجم/٣–٤). فإن عليا عليه السلام هونفس محمد بدلالة آية المباهلة قوله تعالى ﴿ **فمن حاجك من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل إلى الله**

(١) الكليني: اصول الكافي ١: ٢٢٩.
(٢) تلخيص الشافي: ١: ٢٥٣.
(٣) الكافي: ١: ٦٩.
(٤) المظفر: عقائد الإمامية ص٦٧.
(٥) عقائد الإمامية ٦٧.

(٦) انظر: المحسني، محمد آصف: صراط الحق في المعارف الاسلامية والاصول الاعتقادية ٣: ٣٥٠، مطبعة النعمان النجف الاشرف ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨ م.
(٧) المحسني: صراط الحق ٣: ١٧١ (بتصرف).
(٨) الحاكم النيسابوري: مستدرك الصحيحين ٣: ١٢٦ قال الحاكم عنه (هذا حديث صحيح الاسناد)

رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم،

قد علّمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل،

وماكان الله لينزل عليه شيئا لم يعلم تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله

فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (آل عمران/٦١) كما يرى مفسرو الإمامية[١] وهو أقرب الناس إليه ومكمّل مهمته من بعده ووارث علمه وصنو القرآن وعدله ومستنطقه يروي سليم بن قيس الهلالي عنه عليه السلام أنه قال (مانزلت على الرسول ﷺ من آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ وكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ودعا الله عز وجل أن يعلمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه اليّ فكتبته وماترك شيئاً أعلمه الله عز وجل ولا أمر ولانهي وماكان ومايكون من طاعته أو معصيته إلا علمنيه وحفظته فلم انسَ منه حرفا واحدا)[٢].

ويؤكد الإمام عليه السلام خصوصيته في القرب منه فيقول.. وليس كل اصحاب رسول الله ﷺ يسأله ويستفهمه حتى أنهم كانوا ليحبّون أن يجيء الاعرابي أو الطاري فيسأله ﷺ حتى يسمعوا كلامه وكان لايمرّ بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته..)[٣].

هذا القرب من النبي ﷺ بكل معانيه والتلقي عنه جعل عليا عليه السلام محيطا بعلوم الكتاب الكريم حتى أهله ذلك إلى ان يقول على رؤوس الاشهاد (سلوني قبل أن تفقدوني والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية، في ليل نزلت أو في نهار انزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم به)[٤].

وهو القائل يصف سعة علمه (بل اندمجت على مكنون علم لوبحت به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة)[٥] على مثل هذا كان عليه السلام دائرة معارف القرآن ورأس علمائه ومن عنده علم الكتاب الذي أشارت إليه الآية – كما يرى الإمامية وكثيرون غيرهم – في قوله تعالى ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ (الرعد/٤٣).

فقد وردت عديد من الروايات عن أئمة آل البيت عليهم السلام وجمع من الصحابة، ثم كثيرٌ من المفسّرين على نزولها فيه[٦].

ولقد تكاثرت المصاديق على اختصاصه عليه السلام بهذا الوصف، وكونه أعلم صحابة رسول الله ﷺ بالكتاب، فضلا عن غيرهم، وهذا ماتعارف عليه الصحابة انفسهم فقد سئل اين عباس وهو الموصوف بحبر الأمّة وترجمان القرآن والملازم لعلي عليه السلام وتلميذه وخريجه كما يعبر ابن أبي الحديد[٧] وقد عرف من بين الصحابة بكثرة ماورد عنه من الروايات في تفسير القرآن وقد سئل: اين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط !.[٨].

وفي رواية عن سعيد بن المسيب أنّ ابن عباس (رض)سأل رجلا: أعلي أعلم عندك أمّ أنا؟ فقال الرجل لو كان أعلم عندي منك لما سألتك (وكان جاءه سائلا) قال: فغضب ابن عباس حتى اشتدّ غضبه ثم قال: ثكلتك أمّك علي علمني وكان علمه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ علمه الله من فوق عرشه فعلم النبي ﷺ من الله وعلم علي من النبي وعلمي من علي وعلم أصحاب محمد كلهم في علم علي كالقطرة الواحدة من سبعة أبحر)[٩].

هذه الملامح المهمة من العلاقة الوثيقة بين الإمام والنصّ القرآني اتضحت في خصوصية فهمه عليه السلام إلى درجة يصورها في قوله لمن سأله: هل عندكم شيء من الوحي؟

فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه)[١٠]. وإنعام النظر في قوله عليه السلام يثبت أنّ أقل مايدلّ عليه (أنّ مانقل عنه من أعاجيب المعارف الصادرة عن مقامه

(١) ظ الطوسي: التبيان ٢: ٤٨٥، الطبرسي: مجمع البيان ٢: ٤٥٣، الطباطبائي: الميزان ٣: ٢٢٣.
(٢) ظ الحويزي (عبد علي بن جمعة): تفسير نور الثقلين ١: ٢٦٤ مطبعة الحكمة، طهران.
(٣) الطبرسي: الاحتجاج ١: ٣٩٥.
(٤) ظ: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، الصدوق: التوحيد ٣٠٥، المفيد: الاختصاص ٢٣٦، القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ١: ٣٥ وغيرها.
(٥) ظ: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة مج١: ٢١٣.

(٦) ظ: القندوزي: ينابيع المودة ص١٠٣، عن ابي سعيد الخدري قال سالته (أي الرسول ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ قل كفى بالله.. الآية) فقال ﷺ: ذاك اخي علي بن ابي طالب).
ومافي الاحتجاج ١: ٢٣٢ من روايات عديدة في هذا المعنى كما عن سليم بن قيس الهلالي انه سمع عليا عليه السلام يقول في الآية..(اياي عنى بمن عنده علم الكتاب).
(٧) شرح النهج ١ ١: ١٩.
(٨) شرح النهج ١ ١: ١٩.
(٩) الطوسي: الامالي ١: ١١.
(١٠) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ٣: ٧١، الفيض الكاشاني (محمد بن المرتضى): الصافي في تفسير القرآن ١: ٢٢ المطبعة الاسلامية طهران ١٣٧٤هـ – ١٩٦٧ م.

العلمي الذي يدهش العقول مأخوذة من القرآن الكريم)[١].

هذا الفهم الكامل للنصّ القرآني الذي تعبر عنه الروايات السابقة يصفه الإمام عليه السلام بأنّه استنطاق للنصّ الذي لاينطق بنفسه وإنما تلك مهمة الإمام المعصوم ووظيفته التي يرثها عن النبي صلى الله عليه وآله يقول عليه السلام: أرسله صلى الله عليه وآله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الامم وانتقاض من المبرم فجاءهم بتصديق الذي بين يديه والنور المقتدى، ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه..)[٢].

وقد قام عليه السلام بهذه المهمة الجليلة خير قيام حتى أنّنا لو أحصينا ماروي عنه عليه السلام لوجدناه أكثر الصحابة تصديا لتفسير القرآن حتى قال ابن ابي الحديد إنّ أكثر علم التفسير أخذ عنه[٣].

وكان لخصوصيته العلمية وقربه من النبي صلى الله عليه وآله من جهة وامتداد حياته طوال مدّة الخلافة الراشدة من جهة أخرى أثر كبير في سعة هذه الجهود ووضوح أثرها في تفسير القرآن الكريم بخاصة وقد اشتدت الحاجة بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله إلى توضيح معاني القرآن، وبرزت قضايا جديدة وحاجات فرضتها طبيعة اتساع الرقعة الجغرافية لدولة الاسلام أو طبيعة التلاقح الحضاري والعقائدي الذي فرض تحدياتٍ أخرى أوجبت تصدي علماء الدين إلى بلورة المنظور الاسلامي للعقيدة المستمدّة من الكتاب الكريم وكان علي عليه السلام وأبناؤه من بعده في مقدمة من وقف تلك الوقفة وهي مهمة الإمام المعصوم التي سنجد أن متكلمي الإمامية يرونها أساسا ودليلا لاثبات وجوب الإمامة اذ لابد من وجود الإمام المعصوم (لانتفاء البيان في النصّ في كل زمان يبين للناس في القرآن والسنة فلا يحصل البيان يقينا، وحيث ان هناك تلازما بين امره تعالى بالتقوى وضرورة البيان وأنّ التقوى مترتبة وتالية للبيان ومنوطة به وحيث أنّ النصّ فيه المتشابه والمحكم والمجمل والظاهر فلابدّ من معصوم، إذ لولا وجود المعصوم المبيّن للآيات الذي يحصل بقوله اليقين لم يحصلْ مانيط به من التقوى وهو مقتضى قوله تعالى ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾[٤] (سورة البقرة/١٨٧).

هذا الارث العظيم الذي خلفه الإمام عليه السلام والذي لم يتهيأ لهذا البحث في حدوده الضيقة إلا لمس جوانب بسيطة منه هو التركة التي انتقلت إلى الأئمة الآخرين عليهم السلام ولاسيما أننا قد أسلفنا القول إنّ إحدى طرائق علم الإمام هو التلقي عن سابقه ممّا شكّل منظومة يكمل بعضها بعضا وكان لكل من الأئمّة دوره الواضح فيها وإن تفاوتت ملامحها التطبيقية الواقعية لكلّ إمام منهم بتأثير الظروف السائدة في عصره وطبيعة حاجات ذلك العصر والمؤثرات السياسية والفكرية فيه مما كان له أثر واضح في بروز الدور العلمي لبعض الأئمة أكثر من الباقين ومن إلقاء نظرة سريعة على الساحة الفكرية التي غطتها مدّة حياتهم لاستقراء طبيعة جهد كل منهم نلتقط بعض الشذرات من ملامح دورهم.

وأوّل ما يتجلّى ذلك في خصوصية الدور الكبير الذي أدّاه الامام الحسن الزكي عليه السلام (ت ٥٠ هجرية) إذ سار على نهج أبيه عليه السلام في حمل راية الإمامة بكل ما احتملته من مهام جليلة كان أهمها الحفاظ على مسيرة الاسلام العظيم وتثبيت ركائز العقيدة في مدّةٍ حالكة شهدت أحداثا جليلة استدعت منه تلك الوقفة التي حفظتْ بيضة الاسلام.

فقد كانت له عليه السلام مواقف في الدفاع عن العقيدة تركت أثرا كبيرا في صياغة المنظور الاسلامي عموما والإمامي على وجه الخصوص والذي يقوم على استجلاء المعاني الواقعية للنصّ القرآني والنبوي باستنطاقهما ليبوحا بما حملاه من أبعاد ذلك المنظور المتكامل المعصوم.

وأكثر مانجد مصاديق ذلك فيما ورد عنه عليه السلام من المناظرات والمحاججات التي تناولت أغلب مباحث العقيدة وجوانبها وخصّت أصل الامامة وإثباتها والنصّ عليها وبيان أحقّيتهم عليهم السلام بها بمساحة كبيرة[٥].

وقد فعلت المجاميع الحديثة وكتب العقيدة عند الإمامية بكثير من هذه النصوص الواردة عنه عليه السلام والتي شكلت رصيدا تَمثَّلَهُ

(بتصرف).

(٥) انظر للتفصيل الاحتجاج ١: ٣٩٥ – ٤٢٠، ٢: ٣–١٣، الصدوق: التوحيد ص٤٥، ١٨٤، ٢٣٠، ٣٠٧، ٣٧٨ – ٣٨٣ وكذلك الكليني: الكافي (الاصول)، المرتضى: الشافي العلامة الحلي: الالفين في مواضع كثيرة منها.

قال علي عليه السلام : مانزلت على الرسول صلى الله عليه وآله من آية من القرآن

إلا أقرأنيها وأملاها عليّ وكتبتها بخطي وعلمني تأويلها

وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ...

متكلمو الامامية فيما بعد مع ماورد عن باقي الائمة عليهم السلام وأسسوا في ضوئه ركائز المنظومة العقائدية للإمامية.

واستكمالاً لهذا الدور نجد أنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام (استشهد: ٦١ هـ) قد بيَّن أسس الإمامة ودافع عن مفاهيمها وضوابطها التي أهمها: إنّ الإمامة عنده – وهي من أصول الدين – لم تكن مجرد منصب سياسي ولا الموقف تجاهها سياسياً وإنما كانت عنده مسؤولية للامام تجاه الله يتولاها بالنصّ ولذلك فهو حين لم يبايعْ يزيدا فلأنّه يرى أنّه (في ظل دولة يقوم نظامها السياسي على أسس دينية فلا تعد البيعة أو انتخاب الحاكم مجرد عمل سياسي وإنّ بيعة يزيد انحراف عن أصل من أصول الدين)[١].

وانطلاقا من هذا الأصل بالذات وهو من أهم ركائز المنهج العقائدي عند الإمامية كانت ثورته ضد الحكم الأموي قضية ومبدأ ، دينيا (يتصل بالدعوة والعقيدة اكثر مما يتصل بالسياسة والحرب ؛ ذلك أنّ معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب بل آيدلوجية تمسّ العقيدة في الصميم)[٢] فقد حاول الحكم الاموي أن يرسخ نظرية في القضاء والقدر تتقاطع مع ركائز العقيدة الاسلامية وتناقض القرآن وتنسب انحرافات الحكام إلى قضاء إلهي وتمثيل بشري لإرادة السماء وهي قضية تمثلت في سيادة عقيدة الجبر وإنّ الخليفة ظلّ الله في الارض والمنفذ لإرادته وهو ماعبر عنه بالتفويض الإلهي الذي بنت عليه الدولة الاموية بعامة وحكم معاوية ويزيد بخاصة مسألة الخروج عن المبدأ الاسلامي في الحاكمية السياسية وتحويلها إلى قيصرية وراثية لاتحدّها الضوابط الدينية الروحية التي تمثل أهم ركائز الأهلية للخليفة فكان يراد مثلا تثبيت أنّ اختيار يزيد للخلافة كان بقضاء من الله تعالى وليس للعباد خيرة في أمرهم وهكذا كاد يكون من مظاهر العقيدة أن تترسخ نظرية التفويض الالهي للحاكم بغض النظر عمّا إذا كانت مسيرته في طاعة الله أو سخطه وكأنه قضاء حتميٌ على العباد وهي تحولات دراماتيكية في مسيرة العقيدة الاسلامية كانت لها اثار مدمرة في الواقع العقائدي والسياسي فيما بعد فكان خروجه عليه السلام تصحيحا للمسيرة وترسيخا لمفاهيم الدعوة الاسلامية الصحيحة وتاسيسا لأصول الموقف المبدئي من قضية الإمامة (الخلافة) ومعايير النظر إليها ودفاعا عن الحقّ الديني وليس الشخصي في اختصاص الإمام عليه السلام بالنصّ الإلهي بطريق النصِّ من النبي صلى الله عليه وآله ثمّ نصّ الأئمة السابق منهم على اللاحق.

وكان لاستشهاده عليه السلام في سبيل هذا المبدأ ثمار جليلة من أهمّها أنّه مثل (نقطة تحول في التفكير السني من حيث استنكار جمهور أهل السنة موالاة خلفاء الجور وانتهوا إلى اعتبار الخلافة الدينية منتهية بتنازل الإمام الحسن[٣] عليه السلام.

ونلاحظ أنّ الخطَّ الفكري لولده الإمام علي بن الحسين عليه السلام (ت: ٩٥ هـ) قد طبع بطابع الدعاء[٤] باعتباره مجالا اعتمده الإمام لبثّ الدعوة الاسلامية فالصحيفة السجادية التي ضمت ماورد عنه عليه السلام من أدعية حملت كثيراً من المفاهيم القرآنية وجلّت الأصول العقائدية وأسست لمنهج فكري ينطلق من تحقيق الصلة مع الله تعالى باعتباره أساسا لبناءٍ عقيدة قوية تضع الانسان على آفاق بناء النظام الاسلامي الاجتماعي والتعبدي والعقائدي الذي أسَّس القرآن الكريم والسنة الشريفة ركائزه الأولى[٥] وانطلق الخطّ الفكري عند الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام (ت: ١١٤ هـ) من دور التوجه إلى التوسع في بثّ العلوم والمعارف حتى لنلاحظ أنّ ممارسته لإمامته أكثر ماتبرز من (كثرة روايته الاحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن آبائه عليهم السلام وبثّ العلوم والمعارف بكلّ وسيلة بحيث شكلّ ذلك مصداقاً جليًا للروايات المشهورة في تلقيب الرسول صلى الله عليه وآله له بالباقر[٦] وهو وصف صار خاصّا به عليه السلام حتى لايطلق إلا وينصرف الذهن اليه وحده – كما تعارف أهل اللغة فنجدهم في تعريفهم البَقْرُ أنّه شقّ العلم والتوسع فيه

(١) احمد محمود صبحي: نظرية الامامة ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نظرية الإمامة ٣٤٨.

(٤) ظ: المصدر نفسه ٣٥٠، محمد الخليلي: امالي الإمام الصادق: ١٥٣ مطبعة النعمان / النجف ١٩٦٥م – ١٣٨٤ هـ

(٥) انظر الصحيفة السجادية وقد طبعت عدة طبعات وتحوي ٥٤ دعاء في مختلف الاغراض.

(٦) من رواية طويلة ان جابر بن عبد الله الانصاري (كان يقعد في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله.. وكان ينادي ياباقر العلم ياباقر العلم. فكان اهل المدينة يقولون: جابر يهجر. وكان يقول والله ما اهجر ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ستدرك رجلا مني اسمه اسمي وشمائله شمائلي يبقر العلم بقرا فذاك الذي دعاني الى ما اقول) انظر اصول الكافي ١: ٤٦٩، المفيد: الارشاد ٢٩٤. المطبعة الحيدرية، نجف ط٢ ١٣٩٢، ١٩٧٢م. وروى قريباً منه اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٢٠.

واستنباط فروعه وأنّه لذلك سمّي محمّد بن علي بالباقر[١] فقد أثرت عنه عليه السلام علوم ومعارف في شتى المجالات الفكرية الإسلامية وبرزت في عصره على وجه الخصوص ملامح الاكتمال لمذهب الشيعة الإمامية في آرائه في العقيدة، والاستقلال التام في آرائهم[٢]. ولاسيّما أنّ من أهم ملامح عصره عليه السلام ظهور الاعتزال وشيوع الجدل والمناظرات في قضايا التوحيد والذات والصفات.. الخ.

حتى قيل (لم يظهر عن أحدٍ من أولاد الحسن والحسين عليهما السلام من العلوم ماظهر منه من التفسير والكلام والفتيا)[٣].

ويعدّ تولي الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ت: ١٤٨ هـ) الإمامة بعد أبيه الباقر مرحلة تاريخية فاصلة وحاسمة طبعت المذهب بطابعها في جميع المجالات الفكرية وكان لطبيعة عصره كونه مرحلة انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين أن فُسِح أمامه المجال واسعا لترسيخ أُسس الفكر الإمامي وأن يتوسّع في جهده العلمي وعطائه الفكري فتوزعت اهتماماته في شتّى العلوم الدينية وتناولت العلوم الأخرى كالكيمياء والفلك والرياضيات.

وقد استقل عليه السلام بالإمامة مدّة أربعة وثلاثين سنة (١١٤-١٤٨هـ) كانت لها أهمية كبيرة في وضوح أثره البارز في فكر الإمامية وتبين ذلك بوضوح تامّ في منهجه الفكري القائم على أساس المحافظة على العقيدة الاسلامية في وجه تيارات الإلحاد والزندقة التي سادت عصره، وموقفه من الحِجاج والمناظرة مع أتباع الفرق الاسلامية الاخرى[٤] ولاسيّما أنّ بدايات علم الكلام ظهرت في هذا العصر.

وكان لمنهجه الأثر الواضح في تشكيل منهج الإمامية الكلامي والتفسيري ويظهر ذلك بوضوح من كثرة تلامذته الذين عدوا بأربعة الاف[٥]. وقد نسب إليه تفسير للقرآن[٦] وجمع تلميذه (المفضل) مجالسه وأماليه التي ضمنها آراء كلامية مهمة تناولت شتّى مفاهيم العقيدة[٧]. كما رويت عنه المئات من الروايات في التفسير والعقائد تضمنتها كتب الحديث والعقائد[٨].

وصارت للامام الصادق عليه السلام بسعة علمه وكثرة الآخذ عنه مدرسة بل جامعة إسلامية كبرى انتشرت آثارها في أرجاء العالم الإسلامي وشكل اتباعها كثيرا من الملامح الفكرية الاسلامية تفسيراً وفقها وكلاما.

وهؤلاء الأَئمة الثلاثة (علي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق) عليهم السلام ارتبطوا بالقرآن بعلاقة وطيدة وتصدّوا لتفسيره وكشف معانيه وشكّلوا قوام مدرسة الكوفة في تفسير القرآن[٩].

كما أنّ تلامذة كلّ من الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام يمثّلون الاتجاه النصّي في مدرسة الكوفة في التفسير التي كان لها أثر واضح في ظهور مؤلفات عديدة في تفسير القرآن الكريم[١٠].

تولى الإمامة بعد الصادق عليه السلام ستة أئمّة هم ولده موسى الكاظم (ت: ١٨٣ هـ) ثم عليّ بن موسى الرضا عليه السلام (ت: ٢٠٣ هـ) ثم محمّد الجواد عليه السلام (ت: ٢١٩ هـ) ثم ابنه عليّ الهادي (ت: ٢٥٤ هـ) ثم ابنه الحسن العسكري عليه السلام (ت: ٢٦٠ هـ) ثم ولده الإمام المنتظر المولود عام ٢٥٥ هـ إلا ان دور هؤلاء الأَئمة لم يكنْ بارزا بدرجة وضوح دور الإمام الصادق عليه السلام للاسباب والمؤثرات التي سبق الحديث عنها (فلم تسنح الفرصة لواحد منهم ليظهر ما استودعه الرسول صلى الله عليه وآله إيّاه وليبلغ ما استحفظه عليه كما سنحت للصادق[١١] عليه السلام.

إلا أنّ الإمام الرضا عليه السلام من بين هؤلاء الأَئمة يتميز بورود كثير من الروايات عنه في تفسير القرآن والمناظرات الكلامية ولاسيّما أنّه عليه السلام عاصر محنة (خلق القرآن) وقد وردت عنه صحيفة تضمنت أُسس العقيدة وأصول الدين ألّفها بطلب من المأمون. وكانت له مناظرات كثيرة أهمّها مجلس المأمون المشهور[١٢] في التوحيد ونفي التجسيم وعصمة الانبياء وغيرها من المسائل.

(١) انظر مثلا: الازهري: تهذيب اللغة ٩: ١٣٦، ابن منظور: لسان العرب ٥: ١٤٠، الفيروز ابادي: القاموس المحيط ١: ٣٧٥.
(٢) احمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ٣٥٩.
(٣) المجلسي: البحار ١١: ٨٤.
(٤) نظرية الإمامة: ٣٦٢، عبد الله فياض: تاريخ الإمامية ص١٥٠.
(٥) ظ: المفيد: الارشاد ٢٤٩.
(٦) ظ: بروكلمان: تاريخ الادب العربي ٤: ٩- ١١.
(٧) ظ: محمد الخليلي: امالي الإمام الصادق عليه السلام خصوصاً الجزء الرابع منها.
(٨) ظ الكليني: الكافي (الاصول) الصدوق: التوحيد الطبرسي: الاحتجاج.
(٩) ظ: د. محمد حسين الصغير (مدرسة الكوفة في تفسير القرآن العظيم) بحث منشور في مجلة المورد عدد٣ سنة ١٩٨٨م عدد خاص بالدراسات القرآنية ص٩٥.
(١٠) المصدر السابق نفسه ٩٥.
(١١) احمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ٣٦٣.
(١٢) انظر التفاصيل في: الصدوق: التوحيد ص٤٤١- ٤٥٤، عيون اخبار الرضا ١: ١٥٤ ومابعدها.، الطبرسي: الاحتجاج ٢: ١٧٤ ومابعدها.

وفي المباحث الآتية من هذا الفصل ستتبين لنا ملامح من الدور الكبير الذي مارسه الأَئمة عليهم السلام في تفسير القرآن وبيان أصول العقيدة انطلاقاً منه ومن ثمّ تأسيس أصول المنهج الإمامي في فهم النص القرآني.

المبحث الثاني: ضوابط التعامل مع النصّ القرآني في رأي الأئمة

من خلال متابعة تصدي الأَئمة عليهم السلام لتفسير النصّ وتجلية معانية وبيان مفاهيمه وفكّ أسرار متشابهه كونهم الراسخين في العلم الكاشفين عن النصّ المستنطقين له - كما هو مدلول الروايات - من ذلك كلّه نجدهم عليهم السلام يضعون جملة من الضوابط المهمة تُؤَسِّسُ عليها أصول النظر إلى النصّ القرآني ثم محاولة فهمه وتفسير نصوصه.

ولّما كانوا هم عدل القرآن والناطقين عنه والمتلقين علمه عن النبي صلى الله عليه وآله أو بالإلهام فانّهم إنّما يفهمون النصّ ويكشفون عن معناه بتلك الهبة القدسية وهم ممّن يؤسسون ويؤصلون منهجَ فهمه فإنّ هدفهم من ذلك هو:

١ - أن يواكب النصّ العقل الانساني في حركته، ويتصاعد معه في ترقياته.

٢ - وأن يكشف عن السبل والدلالات التي يرسمها القرآن في إضاءة الطريق والنهوض بمهمة البيان.

٣ - ولتسهيل ولوج هذا الطريق وصولا إلى تحقيق الهدف من النزول فالخطاب عام لم ينزلْ لأحد من دون آخر وانما اختلف الناس في مراتبهم تجاهه:

أ - بتفاوتهم في القدرة على فهمه.

ب - واختلافهم في الزاوية التي يسقطون منها نظرهم إلى النصّ.

ج - واختلاف وسائلهم المستعملة في فكّ مغاليقه.

٤ - الاختلاف في الغاية التي تكون منطلقاً في تصديهم لمحاولة فهمه وكشف دلالاته، إذ كثيرا ماتكون تلك الغاية محرّكاً إلى النظرة الموضوعية للنصّ بعيدا عن التعصّب والتأويل المتعسّف مثلما يمكن أن تكون تلك الغاية أيضاً سبباً في تحميل النصّ مالايحتمله وجرّه إلى ما لا صلة له به، أو مطّ المفاهيم وتفكيك السياقات والوحدة الموضوعية في النصّ لفتح ثغرات تلغى من خلالها المفاهيم الخاصة بالمتصدّي للفهم وبالتالي يؤدي ذلك كلّه إلى إضعاف نسيج النصّ بما يخرج فهم المتصدي عن إيقاع مسيرة النص ومن ثمّ مسيرة العقل والوصول به إلى المنطقة الآمنة التي تتجمع عندها الإمكانات التي يحملها النصّ في القدرة على تغيير الواقع ورسم ملامح المسيرة الانسانية.

كان هذا كلّه هو المحور الذي دارت حوله الضوابط التي رسّخها الأَئمة للمتصدّي لتكون دلالات وعلامات في مسيرة حركة النصّ ، ومن ثمّ مسيرة المفسّر والمستفهم ولتمثل عوامل تمنع الخروج عن حدود الطريق الذي يرسمه النصّ القرآني أولا، ثمّ هي مانعة من تخلّف الفهم في مسيرته بعيدا عن النصّ وحركته ثانيا، إذ تبثّ فيه ديناميكية وطاقة دافعة دائماً إلى محاولة اللحاق بالنصّ لاستكناه كوامنه واستكشاف مفاهيمه وتدبرها ومن ثمّ انعكاس هذه الفعالية في تلمّس مافي النص من القدرة ليس على مسايرة الزمن وحسب، وإنّما سبق كلّ حدودٍ متصورة للبعد الزمني الذي هو فيه، وإحاطته بأيّة أبعاد للتطور يمكن أن يتوافر عليها ذلك الزمن المعين، بل تؤشر هيمنة النصّ واحتوائه لكل خط نهاية متصور يمكن أن يقف عنده العقل البشري وقدرته المزود بها. فللنصّ القدرة على الانطلاق بعيدا عن كل خط نهاية ؛ لأنه تبيان لكل شي ولأنّ علاقته مع الزمن هي علاقة البعد المفتوح.

وهذا الاحتواء والاحاطة عجّز العقل البشري حتى اليوم عن استكمال تصور جوانبه واستبيان احتمالاته وامكاناته فضلا عن مسايرته ومن ثمّ فسيبقى العقل البشري المحدود متخلفا عن الوصول إلى استكناه كلّ مايحمله النصّ من (تكثيف) دلالات وتركيز مفاهيم مالم يستهدِ بهذه الضوابط التي تزوده بآليات وَضَعَها العقل المعصوم الذي خُصَّ بالقدرة على استنطاق النص، وبدونها فإنّ ذلك العقل المحدود سيعجز عن مجرد القدرة على الارتقاء إلى مستوى التدبر المثمر المندوب اليه في النصّ وهو أقصى مايستطيعه - وسنقف عند هذا التفاوت بينهما في قضية الظاهر والباطن في النص - بما يستلزم من المحدود التبعية للمعصوم والاستهداء به في ما يؤسسه من أصول النظر إلى النصّ وهذا مايجعلنا نخوض عميقا في الروايات الواردة عن الأَئمة من أهل البيت عليهم السلام في تاسيس الضوابط والاليات لفهم النصّ من بيانهم لها مباشرة كضوابط أو

بانتزاعها من تطبيقهم لها عند تفسيرهم للنصّ، أو عند اقتباسهم النصّ في مجال الاستدلال به للكشف عن ملحظ عقيدي أو تفصيل أصل من أصول الدين وبما أنّ البحث بأزاء تحديد هذه الضوابط بدقة يتحكم بها الاطار البياني المروي عن المعصوم فسيبتعد الباحث عن التنظير والاجتهاد الخاص على الأصل ويكتفي – قدر الامكان – بتلقي انعكاساته التي تبرق في الذهن مع محدودية القدرة الشخصية للتعبير عنها أو في تلقيها. وهذه الضوابط يمكن إجمالها على النحوالآتي:

الأول: تعيين حدود النظر إلى النصّ وقيمته الذاتية

ويقوم ذلك على تصور الطاقات المفتوحة للنصّ والإحاطة بطبيعة مايحمله من خصائص كامنة وظاهرة لايمكن – في حدود زمن معيّن – تصورها تفصيليا؛ لأنّ ذلك أمرٌ يكشف عنه في ضوء تراكم فاعلية العقل البشري وإمكاناته الموضوعية إزاء النصّ وإن كان تصور ذلك ممكنا إجمالا في إطار الاستضاءة بما يُعرّف النص به نفسه كونه ﴿ تبيانا لكل شي ﴾ (النحل/٨٩).

وهذا مانلاحظ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد شددوا الاشارة اليه ورسموا لسبيل التفسير دلالة مهمة يجب أن لاتتخطى هذه الحقيقة وهو مانلمسه جليا من بعض الروايات المنقولة عنهم عليهم السلام.

من ذلك ماروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال (ان الله لمْ يدعْ شيئا تحتاج إليه الأمّة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله وجعل لكل شيء حدّا وجعل عليه دليلا يدلّ عليه)[١].

ويؤكد الإمام الصادق عليه السلام مصدرية القرآن للتأصيل في تحديد دقيق يفهم الآية على واقع ماعليه القرآن في تأصيله الأصول وأمهات المسائل وإن لم يخضْ في التفصيل والتفريع في كل شؤونها يقول الإمام عليه السلام (ما من شيء يختلف فيه اثنان إلا وله أصلٌ في كتاب الله)[٢].

ومهمة التفريع وانتزاع الجزئيات تبقى مهمة لفهم المتصدي الذي يتفاوت كما اسلفنا – ونجده في أعلى حدوده وامكاناته يتمثل عند الأئمة عليهم السلام في ما يصوره الإمام الصادق عليه السلام أيضا بقوله[٣] (إنّي أعلم مافي السموات ومافي الارض، وأعلم مافي الجنة وأعلم مافي النار، وأعلم ماكان ومايكون ثم مكث هنيئة فرأى ان ذلك كبر على من سمعه فقال: علمت ذلك من كتاب الله عز وجل ان الله يقول ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل/٨٩).

هذه الطاقات والشمولية الكامنة في النصّ القرآني هي خصائص ذاتية له ميـّزته من غيره من الكتب السماوية لذا ترى الإمام عليه السلام يقارن القرآن في مطلقيته مع الكتب الأخرى في نسبيتها فيقول في ما نقله العياشي (قال الله لموسى عليه السلام ﴿ وكتبنا له في الالواح من كل شيء ﴾ (الاعراف/١٤٥). فعلمنا أنه لم يكتب لموسى عليه السلام الشيء كله، وقال الله لعيسى عليه السلام ﴿ لأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ (الزخرف/٦٣) وقال لمحمد صلى الله عليه وآله ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل/٨٩)[٤].

وترتبط هذه الشمولية والإحاطة بأهمّ خصائص الرسالة الإسلامية في كونها خاتمة الرسالات وهي بناء على ذلك من لوازم الخاتمية في كونها كمال الدين الالهي المنزل إلى العباد في استنفاد كلّ محتملات الحاجة الانسانية التي ينبغي للنصّ تغطيتها وهذا المعنى هو ماعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام في ما روى عنه: (أنّ الله أنزل القرآن تبيان كلّ شيء حتّى والله ماترك شيئا يحتاج العباد إليه إلا بيّنه للناس حتّى لايستطيع عبد يقول: لو كان هذا في القرآن إلا أنزل الله فيه)[٥] وهذا مااكده القرآن لنفسه في آخر مانزل منه خاتما الوحي الالهي في آخر مايتضمنه بقوله تعالى ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ (المائدة/٣).

إن هذه الشمولية في النصّ تستلزم من المتصدي – لتفسيره كما يوحي به الأئمة عليهم السلام – أن يرتقي بفهمه إلى مستوى استكناه الآفاق المفتوحة للنصّ بما يحقق كشف مالم يكشف بعد.

(١) ظ: ابو جعفر محمد بن الحسن الفروخ الصفار: بصائر الدرجات ١: ٦. طبع طهران (د. ت)

(٢) ظ: البرقي (الشيخ ابو جعفر محمد بن خالد: المحاسن ٢٦٧ دار الكتب الاسلامية. طهران.

(٣) الكافي (الاصول) ١: ٢٦١، البحار ج٩٢ ص٨٥ المكتبة الاسلامية / طهران ١٣٨٧ هـ

(٤) تفسير العياشي: ٢: ٢٦٦.

(٥) المجلسي: البحار ٩٢: ٨٥، انظر ايضا الرواية المؤكدة لهذه عن الإمام الرضا عليه السلام:(ان الله عز وجل لم يقبض نبينا صلى الله عليه وآله حتى اكمل له الدين وانزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والاحكام وجميع مايحتاج اليه الناس كملا وقال عز وجل ﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾. الكافي (الاصول) ١: ١٩٨.

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

ان الله لمْ يدعْ شيئا تحتاج إليه الأمّة إلى يوم القيامة

إلا أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله وجعل لكل شيء حدّا وجعل عليه دليلا يدلّ عليه

وتدلّ الروايات من جانب آخر على أنّ ما انكشف للأئمّة عليهم السلام من معارف عظيمة كانت تنطلق أساسا من هذه الشمولية في النصّ وهو ماجعل الإمام علياً عليه السلام يقول لمن سأله: هل عندكم شيء من الوحي؟ قال عليه السلام: لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إلا أنْ يعطي الله عبداً فهماً في كتابه)[١].

الثاني: مرجعيّة النصّ ومركزيته وحاكميته.

فإنّ هذه الاحاطة والشمولية تقتضي – على سبيل الأمر البديهي – أن يكون هذا النصّ معيارا ومقياسا يحدد بإزائه وفي ضوئه كل مايمتُّ إلى الاسلام – شريعة أو عقيدة – بصلةٍ فما وافقه أُخذ به لأنه وحده الحقّ والكلمة الناطقة بخطاب الله تعالى والمعبرة عن قوانين الوجود كما مر فيها قوله تعالى ﴿ والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق.. ﴾ (فاطر/٣١).

وقال تعالى ﴿ وان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ (النساء/٥٩).

وقال تعالى ﴿ وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ﴾ (النحل/٦٤).

هذه المعيارية أكدها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لكونها دستورية المنظور الاسلامي في مختلف جوانبه بقوله صلى الله عليه وآله (إنّ على كل حقٍّ حقيقة وعلى كلّ صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وماخالف كتاب الله فدعوه)[٢] وما يترتّب على ذلك هو كامل الاستفادة من الخصائص والآثار المهمة التي توافر عليها النصُّ والتي بينها صلى الله عليه وآله قوله (القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من كل الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وماعدل أحد من القرآن الا إلى النار)[٣]

وبما ان السنة شارحة القرآن وهذا ما وجه المسلمين إلى وجوب الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر/٧).

فاننا نجد النبي صلى الله عليه وآله يوصي بالتمسّك بالقرآن والأخذ به وعرض الروايات المنقولة عنه صلى الله عليه وآله على كتاب الله.

وإنّ حجب هذه المعيارية – التي يجعلها الأئمة عليهم السلام ضابطا مهما لفهمه – بإلغاء شرط موافقة الاحاديث أو مايستنبط من القرآن يعني ذلك العدول إلى مايؤدي إلى النار ويدخل ذلك في خانة الكذب المؤدّي اليها وقد كثرت الكذابة على النبي صلى الله عليه وآله وانتشر الوضع والافتراء حتى نبّه صلى الله عليه وآله فقال (من كذب عليَّ متعمّدا فليتبوّءْ مقعدهُ من النار)[٤] فلابدّ والحال هذه من مراقبة ماينقل ومحاسبته في ضوء هذه المرجعية وضرب ماخالفها منه عرض الجدار.

وهذا أمر شديد الضرورة تفرضه– فضلاً عن كثرة الكذب والوضع في الأحاديث – كثرة الافهام المختلفة الاتجاهات التي تصدّت للتعامل مع النصّ واستجلاء تصوّرها لملامح العقيدة وأصولها ، وكَثُرَ من ثمّ أهل الجدل والتأويل والآراء وصار كلّ أهل رأي يلجؤون إلى النصّ محاولين تأويله بما يوافق مذاهبهم فصار لزاما على كلّ متصد للتفسير أن يحافظَ على هذه المعيارية والحاكمية للنصّ القرآني ثمّ السنّة صحيحة الصدور وهو ماينطبق عند الإمامية على مايردُ عن الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام.

لذا نجد أنّ الأئمة عليهم السلام في تأسيسهم لمنهج فهم النصّ يؤكّدون هذا الضابط الرئيس بجعل القرآن الكريم معيارا وحاكما وعلى المفسّر الخوض على وفق مؤشراته لتحديد حقيقة مايذهب إليه أو بطلانه.

فقد روي عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال في جوابه لمن قال له: صف لنا ربك حتى نزداد في توحيده تعالى وصفاته وطريق معرفته: (مادلّك القرآن عليه من صفته فاتبعه ليوصل بينك وبين معرفته وأتمّ به واستضيءْ بنور هدايته فإنّها نعمةٌ وحكمة أوتيتهما فخذْ ماأوتيت وكنْ من الشاكرين، ومادلّك الشيطان عليه ممّا ليس في القرآن فارفضه ولافي سنة الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره فَكِلْ علمه إلى الله عز وجلّ فإنّ ذلك منتهى حقّ الله عليك)[٥].

والمراد بما كلفك الشيطان.. الخ من قول الإمام عليه السلام هو (التوهّمات والخيالات الحاصلة في النفس من المعارف فليس

(١) صحيح البخاري ١: ٢٩، السيوطي: الاتقان ٤: ٢٣٠ الكاشاني: التفسير الصافي ١: ٢٢.

(٢) الكافي (الاصول) ١: ٦٩.

(٣) الكافي (الاصول) ٢: ٦٠٠.

(٤) البخاري: ابو عبد الله محمد بن اسماعيل صحيح البخاري ١: ٢٩ كتاب العلم المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق، مصر ١٣١٤ هـ سنن الترمذي ١١: ٦٧.

(٥) الصدوق: التوحيد ٥٥.

لأحدٍ أن يتبعها بلْ لابدّ من الاعتقاد بالواقع على ماهو عليه وإيكال علم ذلك إلى الله تبارك وتعالى والا فيدخل ذلك في اتّباع الشيطان واغوائه والتعمق المنهي عنه)[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال (إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله)[٢].

وكما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في إجاباته عن مسائل أبي قرّة المحدِّث وقد سأله في أنّ الرؤية قسمت لمحمّد صلى الله عليه وآله كما قسّم التكليم لموسى عليه السلام فأكد الإمام عليه السلام نفي الرؤية عن الباري تعالى فكان أن احتجَّ السائل بروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله في حقيقة مارأه في المعراج ممّا تصوّره (أبو قرة) تفسيرا لآيات سورة النجم واستدلّ به لتاكيد حصول رؤية الله تعالى عند النبي صلى الله عليه وآله فاستنكر الإمام عليه السلام تلك الروايات وأكّد استدلالا بالآيات القرآنية استحالة حصول الرؤية فقال أبو قرة: فتكذّب بالروايات؟

قال الإمام عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبت بها)[٣].

أي كذب بها بالمعنى الذي يفهمه منها القائلون بالرؤية البصرية والا فالروايات في حصول الرؤية (القلبية) كثيرة الورود عن الرسول صلى الله عليه وآله والأَئمة عليهم السلام.

الثالث: مرجعية النصّ لنفسه

ان معيارية النص القرآني لغيره تمثل أهلية ذاتية لتمثيل نفسه بنفسه وهذا مايمثل ضابطا يمثّل أساس منهج تفسيري أصيل هو البدء في الكشف عن النصّ بما كشفه عن نفسه من تفسير القرآن بالقرآن الذي يقوم على استيضاح معنى الآية من نظيراتها وأهلية ذلك مستمدّة من التدبّر المندوب إليه في الكتاب نفسه قال تعالى ﴿ افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ﴾ (النساء/٨٢) إذ يتم تشخيص المصاديق وتعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات وذلك لازم قوله تعالى ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل/٨٩) اذ كيف يتصور ان يكون القرآن الكريم تبيانا لكل شيء ويعجز عن ان يكون تبيانا لنفسه وكيف يكون ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ و ﴿ نورا مبينا ﴾ وهم أحوج مايكون أن يهديهم إليه ويبين لهم نفسه ويضيء لهم خباياه.

ثمّ أنّ الكتاب بتعبير الرسول صلى الله عليه وآله عنه – وهو المروي أيضا عن الإمام علي عليه السلام – (يصدق بعضه بعضا)[٤] ومن مصاديق وتطبيقات هذا التصديق أنْ يبيّن بعضُه خبايا بعضٍ والاستمداد ببعضه على كشف بعضه الآخر.

وممّا لاشك فيه أنّه بوجود هذا الطريق إلى فهم القرآن من الاهتداء بالبيان الالهي نفسه ينتج أن طريقة فهمه غير مسدودة وانه لايحتاج إلى طريق سواه وان كان هادياً فهل يفتقر إلى غيره في الهداية اليه ونحن نلاحظ من الكتاب نفسه ان الله تعالى هو المبين الأول لمراده من كلامه كما في قوله تعالى ﴿ كذلك يبين الله اياته للناس لعلهم يتقون ﴾ (سورة البقرة/١٨٧).

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ (سورة البقرة/٢١٩).

﴿ ثم ان علينا بيانه ﴾ (القيامة/١٩).

﴿ ومايعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم.. ﴾ (آل عمران/٧).

وفي هذا الملحظ المهم يردُ عن الأَئمة عليهم السلام كثيرٌ من الروايات في ضابطية هذا المنهج وأولويته في مصادر تفسير النصّ القرآني ومنع تجاوزه إلى غيره مع وجود البيان فيه وإلى الأخذ به والتدبّر في نصوصه وتحقيق معياريته لقياس صحّة أي فهم لنصوصِه أو فحصٍ عن صحّة المرويات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام في تفسيره كما تبيّن سابقا.

ونلاحظ أنّهم في تفسيرهم كثيرا مايستدلون بالآية على أختِها ويستشهدون بمعنى على آخر في تفسير النص وهذا بلا شكٍ دالٌ على ان ذلك واقع في نطاق الامكان ويمكن للمخاطب أن يناله، ولكن هذا الأمر مقيّد بوجوب النظر إليه في إطار أنّه (لم يكن عملا آليا لايقوم على كثير من التدبر والتعقل وليس بالأمر الهيّن الذي يدخل تحت مقدور كلّ إنسان وإنّما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصّة)[٥].

لذلك فما يستفاد من قيامهم عليهم السلام بتفسير القرآن بالقرآن وتأصيلهم هذا الضابط المهم أنّ (المتعيّن في التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية وذلك بالتدبر بالآثار المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وتهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورود والله الهادي)[١] وستكون للبحث وقفة مع بعض مروياتهم عليهم السلام في تفسير القرآن بالقرآن في مطلب قادم.

الرابع: الموقف من المحكم والمتشابه

نلاحظ في متابعتنا النصّ الوارد عن الأَئمة عليهم السلام لقضية المتشابه أنّه يستشرف النصّ القرآني ويستضيء بخطوطه العريضة. ولاسيما ذلك النصّ الذي أسَّس للموقف من المتشابه في القرآن آلية الحل والمرجعية التي ينطلق منها إلى كشف التشابه وازالته ممثلا في الآية ٧ من سورة آل عمران ، قوله تعالى ﴿ هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فامّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.. ﴾.

ويمكن تلمّس هذا الكشف المتصور للمتشابه عند المعصوم في مرجعيتين:

المرجعية الأولى: المحكم

ونلاحظ هنا أنّ الكتاب قد سبق إلى تأسيس الأهلية الكاملة لهذه المرجعية في رفع التشابه وتحديدها ، فحين نتابع مادة (حكم) التي يعود إليها لفظ (المحكم) نجدها تعني: الشيء الذي حُكِّمَ أصله ومنع منعا بحيث لايمكن نفوذ شيء إليه حتى يفصله)[٢] وبالعودة إلى القرآن نفسه نجده يؤكد هذا المعنى حين يصف نفسه بأنه جميعه كتاب محكم قال تعالى ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ (هود/٢).

كما اننا نلاحظ انه يصف نفسه بأن جميعه متشابه بقوله تعالى ﴿ كتابا متشابها مثاني.. ﴾ (الزمر/٢٣).

لكن آية المتشابه في سورة آل عمران تنحى منحى مغايرا تماماً لهذا الإعمام وتبتعد بالوصف إلى التعبير عن معنى آخر للتشابه المقصود فتبتعد بالوصف إلى اتجاه تاسيسي لآليات الكشف عن النصّ إذ تنقسم اياته على (محكمات) و(متشابهات) لتشكل العلاقة الحتمية والتظافرية بينهما بلا انفكاك ولتؤكد أنّ الفصل بينهما يعني اقتطاع النصّ وتهميش الجزء المهم منه.

هذه العلاقة هي من مرجعية المحكم للمتشابه المعبّر عنها في الكتاب بـ (الأمومة).

ففي قوله تعالى ﴿ هنّ أم الكتاب ﴾ يمكن استخلاص المراد منها من خلال متابعة المفردة في القرآن لكشف الدلالة الأصلية لمعنى (أم). اذ تلاحظ انها ترد فيه بمعنى الأصل وما يرجع اليه الشيء.

لاحظ قوله تعالى ﴿ وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ﴾ (الشورى/٧).

وقوله تعالى ﴿ وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ (الزخرف/٤).

وماينتج من هذا هو ملامح صورة هذه المرجعية في المحكم للمتشابه حين يلجأ اليها في رفع التشابه إذ يتبين بوضوح أنّ المراد من المحكمات هنّ الآيات التي تتضمن أصولا قرآنية ثابتة ومسلَّمة في مقابل المتشابهات التي تبقى مدلولاتها من دون بيان مالم ترجعْ إلى تلك الأصول الثابتة فالمحكم إذن هو محكم بذاته ومبين بنفسه. أمّا المتشابه فيؤول إلى الإحكام بعد رده إلى المحكم الذي هو الأصل الثابت وهكذا تثبت دلالة الإحكام على النص بأكمله فيعود جميعه محكما ويرتفع التشابه الذي ثبت أنّه وقتي مندفع أولا برجعية المحكم له. هذه الحقيقة المهمة كانت مدارا للفهم المعصومي في طريق الكشف عن التشابه من تاكيدها وبيان اسسها العامة منهجة وتطبيقاً وتاشير ضابطيتها وحاكميتها عند التصدّي لكشف دلالات النصّ القرآني.

وهذا ماتتظافرت فيه عديد من الروايات الواردة عنهم صلى الله عليه وآله لبيانه والمندرج في ضمن اتجاهين:

١- **روايات كاشفة عن تحديدهم صلى الله عليه وآله للمتشابه:** ونلاحظ هنا العديد من الروايات نكتفي ببعضها.

فمن ذلك ماروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال (ان اناسا تكلموا في القرآن بغير علم وذلك ان الله تعالى يقول ﴿ هو الذي انزل عليك الكتاب.. ﴾ (آل عمران/٧) فالناسخات من المتشابهات والمحكمات من الناسخات)[٣].

كذلك ماورد في الرواية عن الإمام الصادق في ردّ المنسوخ

(١) السبزواري: مواهب الرحمن في تفسير القرآن ٥: ٥٩.
(٢) الطبرسي: الاحتجاج ٢: ٥٦.
(٣) الصدوق: التوحيد ١١١.

(١) الطباطبائي: الميزان ٣: ٨٧.
(٢) لسان العرب، مادة حكم ١٢: ١٣٤.

(٤) الصدوق: التوحيد: ٢٥٥.
(٥) الذهبي (محمد حسين): التفسير والمفسرون ١: ٤١.

(٣) العياشي: التفسير ١: ١١.

إلى المتشابه[١].

وهذا التحديد للمتشابه في الروايتين وغيرهما يمكن حمله على أنّه جاء بذكر بعض المصاديق للمتشابه ولم يكن القصد منه الحصر، إذ يبدو أنّ وصف المنسوخات بالتشابه يعود إلى مايظهر منها من استمرار الحكم وبقائه وأنّ الناسخ يفسّر تشابه المنسوخ ويكشفه في دلالته على أنّ استمراره مقطوع ويؤكد بدليته عنه.

وفي رواية أخرى – أكثر تفصيلا وتحديدا – يقول الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه (أنّ القرآن زاجر وآمر يأمر بالجنّة ويزجر عن النار، وفيه محكم ومتشابه فأمّا المحكم فيؤمن به ويعمل به وأمّا المتشابه فيؤمن به ولايعمل به وهو قول الله تعالى ﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.. ﴾[٢].

والنهي عن العمل بالمتشابه هنا نظراً لإجماله الذي يجب معه الرجوع إلى المفصل بمقتضى العقل ومن ثمّ إرجاع المتشابه إلى المحكم.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المحكم والمتشابه فقال[٣]: (المحكم مايعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله).

والتعبير بـ (جاهله) هنا يوميء بوجود من لا يجهله وهذا مايلزم عنه الردّ إليه فيعود المتشابه محكما وهو مايتمثل بالمرجعية الثانية لرفع التشابه وهم الراسخون في العلم الذين اشارت إليهم الآية – في حدود فهم الإمامية – وهذا ماسنقف عنده بعد قليل.

٢- روايات في دلالة المتصدّي للتفسير: ان عليه بعد معرفة المحكم والمتشابه إجراء لوازم المرجعية بينهما وذلك بردّ المتشابه للمحكم ليعود النصّ كلّه محكما ويرتفع التشابه وبذلك ينكشف من النصّ مايترتب عليه الفلاح وإصابة الحقّ والاهتداء بهَدْي الكتاب وكشف المراد منه،عن الإمام الرضا عليه السلام (من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم..(ثم قال) إنّ في أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن ومحكما كمحكم القرآن فردّوا متشابهها إلى محكمها ولاتتبعوا متشابهها فتضلوا)[٤].

والرواية ظاهرة في أنّ الأئمة عليهم السلام يرون مرجعية لكلّ محكم (مبين) في مقابل كلّ متشابه بغضّ النظر عن موضع وروده نصّاً قرآنياً كان أو حديثًا مرويًا.

ومالم يتمّ هذا التفحّص للمتشابه ثم ردّه إلى المحكم فإن الرغبة في فهم النصّ وكشف معانيه ستكون واقعة في إطار ماعبر عنه الإمام الباقر عليه السلام بقوله: (ليس أبعد شيء من عقول الرجال من تفسير القرآن)[٥].

المرجعية الثانية: الراسخون

يقوم الفهم الوارد عن الأئمة عليهم السلام لآية المتشابه على أساس أنّ المقصود بالراسخين هم الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وأنّهم يعلمون تأويل متشابه القرآن بالأخذ عن الرسول صلى الله عليه وآله وبعلمهم بالمتشابه يعود محكما ويرتفع التشابه عنه ويرى مفسرو الإمامية تاكيداً لهذا الحصر أنّ قوله تعالى ﴿ الراسخون في العلم ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿ لايعلم تاويله الا الله ﴾ فيكون المراد: لايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم[٦].

وقد ورد عديدٌ من الروايات عن الأئمة صلى الله عليه وآله تؤكّد هذا الفهم للآية الذي يحصر معناها فيهم وتؤكد هذه الروايات أنّ ذلك من الأُسس المهمة التي ينطلق لفهم النصّ في ضوئها فيحتكم في رفع التشابه في الآيات فضلاً عن المحكم اليهم هم صلى الله عليه وآله فمن ذلك ماروي عن الإمام الباقر عليه السلام انه سئل عن الآية ﴿ .. ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم ﴾ فقال: يعني تاويل القرآن كلّه إلا الله والراسخون في العلم، فرسول الله أفضل الراسخين قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله منزلا عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله..)[٧].

والرواية السابقة عن الإمام الصادق عليه السلام في تحديد المتشابه تؤكد هذا المعنى إذ يقول الإمام عليه السلام بعد إيراده الآية في روايته

(١) ظ: العياشي: التفسير ١: ١١.
(٢) ظ: القمي (علي بن ابراهيم): التفسير ٢: ٤٥١ تصحيح وتعليق السيد طيب الموسوي الجزائري مطبعة النجف ١٣٨٦ هـ
(٣) العياشي: التفسير ١: ١٦٢.
(٤) الصدوق: عيون اخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٠ والرواية مروية ايضا عن الرسول صلى الله عليه وآله انظر الاحتجاج ٢: ١٩٢.
(٥) ظ: العياشي: التفسير ١: ١٢.
(٦) انظر مثلاً القمي: التفسير ١: ٩٦، العياشي: التفسير ١: ١٦٣ السبزواري: مواهب الرحمن ٥: ٤٧ وغيرها.
(٧) العياشي التفسير ١: ١٦٤.

(والراسخون في العلم هم آل محمد)[١] صلى الله عليه وآله وفي رواية أخرى عنه عليه السلام أيضا أنّه قال (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله)[٢] هذه الروايات الصريحة في انحصار الرسوخ بهم عليهم السلام أقل ماتدلّ عليه أنّهم ممّن ينطبق عليهم معنى الآية فهم أجلى مصاديقها وإلا فهناك عديد من الروايات الأخرى عنهم صلى الله عليه وآله تحدّثت عن صفات الراسخين بمعانٍ يمثلون هم المصداق الأتمّ لها من مثل مارواه العياشي عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه قال من رواية طويلة.. واعلم ياعبد الله أنّ الراسخين في العلم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا ﴿ آمنا به كل من عند ربنا.. ﴾ وقد مدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه منهم رسوخا..)[٣]

ونستفيد من هذه الرواية دلالتين[٤]:

الأولى: حثّ الإمام المخاطب أن يلزم طريقة الراسخين في العلم بالاعتراف بالجهل في ما جهله فيكون منهم ومشمولا بما مدحهم به الإمام من الصفات الواردة في الدلالة الثانية.

الثانية: إنّه عليه السلام يفسّر الراسخين في العلم بمطلق من لزم ماعلمه ولم يتعد إلى ماجهله.

وبالتالي فالرواية تتعرض إلى صفات للراسخين قد تجري على مصاديق عديدة وتنطبق عليهم عليهم السلام من جهة أنّهم أحد تلك المصاديق ولاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الغيوب المحجوبة بالسدد أراد بها عليه السلام المعاني المرادة بالمتشابهات المخفية عن الأفهام العامّة ولذا أردفه بقوله بعد ذلك: (فلزموا الإقرار بجملة ماجهلوا تفسيره) ولم يقلْ بجملة ماجهلوا تأويله) فتأمل.

هذه الدلالة في الرواية بعدم الانحصار للرسوخ في أهل البيت عليهم السلام مباشرة وان استفيد أنّها تنطبق عليهم كأحد المصاديق على الرسوخ بصورة غير مباشرة إلا أنّ هذا لايمنع احتمال عدم وجود غيرهم ممّن تنطبق عليه تلك الصفات فيكون لها مصداقاً آخر ومن ثمّ يعود الأمر بما يساوي الانحصار فيهم.

(١) المصدر نفسه ١: ١٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٦٤.
(٣) تفسير العياشي ١: ١٦٣.
(٤) الطباطبائي: الميزان ٣: ٦٩ (بتصرف).

ويتأكّد هذا الانطباق فيما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وقد سئل عن الراسخين في العلم أنّه قال: (من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عفّ بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم)[٥].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: (الراسخون في العلم من لايختلف في علمه)[٦].

وهذا التحديد يلتقي تماما مع التحديد الوارد في الآية الكريمة. إذ ورد فيها مقابلة الرسوخ في العلم بقوله تعالى في وصف الفئة الاخرى (الذين في قلوبهم زيغ) فكان الرسوخ في العلم هو الثبات وعدم الاختلاف والارتياب (الزيغ) عند العالم.

ويزيد الامر توضيحاً ماورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال لهشام بن الحكم (ت ١٩٩ هـ): (ياهشام ان الله حكى عن قوم صالحين انهم قالوا ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ﴾ (آل عمران/٨) علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها. إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ينظرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولايكون أحد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصدقا وسره لعلانيته موافقا؛ لأنّ الله عز اسمه لم يدلّ على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه)[٧].

ونكاد نرى تطابقا بين هذا التحديد لمعنى الرسوخ مع مافي الحديث السابق عن الرسول صلى الله عليه وآله ففي كلام الإمام عليه السلام تحديد للرسوخ بقوله (من لم يعقل عن الله) وذلك (أنّ الأمر مالم يعقل حقّ التعقل لم تنسد طرق الاحتمالات فيه ولم يزل القلب مضطربا في الاذعان به)[٨] ولاشكّ أنّ هذا مصداقٌ للزيغ الذي وصفت به الفئة المقابلة للراسخين في الآية ممّن يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة.. ويتاكد كون الرجوع إلى الراسخين في العلم من الضوابط المهمة في الكشف عن النصّ و(إحكام) متشابهه من كلام الإمام علي عليه السلام من حديث طويل يخْلَصُ بعده إلى بيان حكمة وجود المتشابه وخصوصية الراسخين بقوله عليه السلام.

ثم ان الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثها

(٥) ظ: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت: ٩١١هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢: ٧ المكتبة الاسلامية طهران ١٣٧٧هـ
(٦) الكاشاني: تفسير الصافي ١: ٢٤٧.
(٧) الكافي، الكاشاني: تفسير الصافي ١: ٢٤٨.
(٨) الميزان ٣: ٧٠.

المبدلون من تغيير كتابه (بالتاويلات الباطلة) قسم كلامه على ثلاثة أقسام:

فجعل قسما يعرفه العالم والجاهل.

وقسما لا يعرفه إلا من صفى ذهنه ولطف حسّه وصحّ تمييزه ممّن شرح الله صدره للإسلام.

وقسما لا يعرفه الا الله وأمناؤه والراسخون في العلم[١].

والقسم الثالث الذي يشير اليه الإمام لاشكّ أنه دالّ على انحصار الرسوخ.

الخامس: إدراك خصوصية تضمّن النصّ للظاهر والباطن

إذ أنّ من المؤكد أنّ للمنهج القرآني وأسلوبه في ايصال الأفكار والمفاهيم والمعارف المختلفة أثراً بالغ الاهمية في عملية الكشف عن دلالاته وهذا مايستلزم من المتصدي لعملية الكشف أن يكون مستوعباً للاساليب القرآنية في التوصيل والتبليغ وصيغ التعبير، يقول تعالى ﴿ افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ﴾ (سورة محمد/٢٣) ويقول تعالى ﴿ كتاب انزلناه اليك مباركٌ ليدبّرّوا آياته وليتذكر اولوا الالباب ﴾ (سورة ص/٢٩) ونلاحظ أن أسلوب القرآن التعبيري يكاد يتصور في صورتين تعبيريتين هما:

١ - **الظهور المباشر:** وهو مايتمثل فيه ارتسام مدلول الكلمة أو الكلام بالنظرة الأولى في الذهن كما في قوله تعالى ﴿ قل هو الله احد ﴾ (الاخلاص/١).

٢- **التضمن والاحتواء المستبطنين:** وهو مايتمثل في استعمال القرآن للمَثل والقصّة للايحاء بالمفاهيم من جهة أو استعمال الرمز والاشارة الخفية والاحتواء على مفاهيم مستبطنة لاتتكشف بمجرد التدبر ولاتظهر بالاكتفاء بالظاهر.

وقد عبّر الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الحالة بقوله عليه السلام (نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة)[٢].

وهذا مايطلق عليه في النقل عن الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بالظاهر والباطن واحتواء النصّ عليهما وهو ماجاءت الروايات العديدة لبيانه فمن ذلك ماروي عن الرسول صلى الله عليه وآله من حديث طويل في وصف القرآن الكريم (له ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق)[٣].

ويبدو أنّ المراد من الظهر هنا مايفهم من ظاهر الايات الشريفة، ومن البطن الاشارات والرموز. وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام (مامن آيةٍ إلا ولها أربعة معانٍ ظاهر وباطن وحدٌ ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم)[٤] فالتلاوة هنا الظاهر من مدلول اللفظ وأما الباطن فعنى به مافي ذلك الظاهر من معانٍ مستبطنة، هذه الثنائية في النصّ الواحد تستدعي من المفسّر المتصدّي التفاتا مهما إلى ضرورة الوقوف طويلا أمام النصّ وعدم الانجراف إلى التأسيس على الظاهر وحده بحيث يتقيّد فيه وينزوي بالنصّ في دائرة ضيقة ويهمّش مفاهيم ومعارف ربما تكون هي الجانب الأكثر تعبيرا وتوصيلا لمراد المتكلم بالنصّ القرآني وربما تستبعد كثيرٌ من الوجوه المحتملة في تفسيره لاسيّما إذا كان النصّ كما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام حمال وجوه.

وهذا مايتأكد بالمصداق الواقعي في الرواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال سألت أبا جعفر (الإمام الباقر عليه السلام) عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته فأجابني بشيء آخر. فقلت جعلت فداك كنت أجبتني في المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال عليه السلام: ياجابر إنّ للقرآن بطنا وللبطن بطن، وظهرا وللظهر ظهر ياجابر إنّ الآية يكون أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متّصل ينصرف على وجوه)[٥].

وهذا المستبطن من المفاهيم والمعاني في النصّ لابدّ له من كاشف يتحدد عند الأئمة بنحو من الانحصار بهم عليهم السلام مصداقاً وتطبيقا للرسوخ في العلم الذي تبيّن لنا أنّهم إن لم يكونوا مصداقه الوحيد فهم في الاقل أجلى المصاديق.

ثمّ إنّ الفهم للباطن من النصّ يتعلق بالمائز الذي اختصوا به من جهة ولطبيعة النصّ في مخاطباته التي تستحضر اختلاف الافهام وهو ما اشارت إليه روايات عديدة عنهم عليهم السلام منها قول الإمام الحسين عليه السلام (كتاب الله عزوجل على أربعة أشياء على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواصّ واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء[٦] عليهم السلام ويظهر من هذا أمران:

١- إنّ للقرآن مراتب من المعاني المرادة بحسب مراتب أهله ومقاماتهم.

٢- إنّ الظهر والبطن امران نسبيان فكل ظهر بطن بالنسبة إلى ظهره وبالعكس كما يظهر من الرواية السابقة عن الإمام الباقر عليه السلام التي تضمّنت اختلاف إجاباته عن سؤال واحد.

من هنا نفهم ميزتهم عليهم السلام في الكشف عن باطن النصّ الذي يصل إلى حدّ النطق عن القرآن (الصامت) كما عبر عنه الإمام علي عليه السلام في قوله (أرسله ـ اي النبي صلى الله عليه وآله ـ على حين فترة من الرسل.. إلى قوله عليه السلام ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه ألا أنّ فيه علم مايأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم مابينكم) ، كما في قوله عليه السلام (أنا القرآن الناطق وهذا القرآن الصامت)[١] تصريحا بأنّ فهمه للقران وانكشاف باطنه له بما علمه الرسول صلى الله عليه وآله ممّا مرّ بيانه في الروايات السابقة وهذا الانكشاف هو المائز الذي يفصل بين مجرد التدبر في النص وهو أعلى مايصل إليه من عدا الأئمة عليهم السلام من متصدّين للفهم ممّن اجتمعت فيه الشرائط العامّة للفهم وزالت عنه الموانع فاستنبط العقائد الحقّة الموافقة للبراهين العقلية واستظهر الاحكام العملية بمقدار مادلّ عليه الظاهر فليس في وسع هؤلاء إلا النظر من وراء حجاب للالفاظ الظاهرة والمفاهيم والصور الذهنية فهم يستفيدون منه بحدود أن استطاعوا تفسير بعضه لبعض، أمّا الملاحم والغيبيات والتأويل بمعنى إرجاع مفاهيم الكتاب ومعارفه إلى أصولها وغيره ممّا لايكفي مجرّد التدبّر لاستظهاره ولاترقى العبارة للتعبير عنه ولاتفيد الاشارة في الارشاد اليه ممّا هو خارج عن نطاق الظهور اللفظي فلا يمكن استنباطه وتحصيله إلا بالعبور والرقي من مجرد التدبر إلى الاستنطاق الذي يتوقف على تنزل القرآن من السرّ إلى العلن وأن ينطق بمكنونه وذلك لايكون إلا لمن هو أهله وهم مستنطقو الباطن العميق.

السادس: استبعاد التفسير بالرأي والهوى عن ساحة فهم النصّ:

يمثّل التفسير بالرأي احد الاتجاهات الرئيسة في تفسير النصّ القرآني وتكاد صورته تتحدد في مسلكين:

المسلك الأول: المقبول: باعتماد النظر المجرد (الذي يستعين بقواعد اللغة وأساليب البيان من غير أن يخالف تفسيرا عن النبي صلى الله عليه وآله أو يتنافى مع أسباب النزول التي صحّت طرق اثباتها)[٢].

ومن ثمّ فهذا المسلك يعتمد الاتجاه العقلي في الكشف عن معاني الآيات وألفاظها وفي هذه الحدود أجاز العلماء هذا اللون من التفسير في ضوء شرائط تحرزية تتمثل في إرجاعه إلى مرجعية النصّ ومعياريته أولاً، ثم اعتماد ماورد تفسيره عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ثانيًا. وكذلك ان لا تعرف فيه بشاعة الاستقباح.

هذه الضوابط ستكون في مابعد منيرة السبيل للمفسّر برأيه على أن يكون حائزاً للضوابط الفنية والموضوعية للمفسّر التي تمثّل ضابطا آخر مهما من ضوابط التفسير بأن يكون ذا معرفة واطلاع بقوانين اللغة (وأساليبها بصيرا بقانون الشريعة حتى ينزّه كلام الله على المعروف من تشريعه)[٣].

ونلاحظ هنا ورود كثيرٍ من الروايات عن الصحابة والتابعين في التفسير بالرأي بهذه الحدود كما وردت عن الإمام علي عليه السلام في ما رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ (رض): هل عندكم شيء من الوحي الاما في كتاب الله؟

فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن[٤].

كما كان تلميذه عبد الله بن عباس من القلائل الذين كان لهم أن (أُوتوا علما في كتاب الله رغم تحرج أكثر الصحابة من القول في تفسير كتاب الله)[٥].

المسلك الثاني: التفسير بالرأي المنهي عنه:

فقد وردت العديد من الروايات عن الرسول صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام والصحابة والتابعين في استقباحه والنهي عنه. وهو التفسير القائم على التخلي عن الضوابط التي حدّد بها المسلك الأول فهنا يتمّ تفسير النصّ بالرأي الخاصّ دون الاعتماد على شيء من علوم الشريعة والنظر إلى مرجعية الأُسس والاصول التشريعية والعقائدية فيكون معنى الرأي هنا (الاعتقاد عن اجتهاد وربما أطلق

(١) الطبرسي: الاحتجاج ١: ٣٧.
(٢) الكليني: الكافي ٢: ٦٣١.

(٣) البحار ٨٩: ٩٧، الفيض الكاشاني: التفسير الصافي ١: ٩.
(٤) المصدر نفسه ١: ١٨.
(٥) العياشي: التفسير ١: ١١.
(٦) المجلسي: البحار ج ٩٠ ص ٢٠.

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨ ص٢٢٣.

(٢) ظ: الزرقاني: مناهل العرفان ١: ٥١٨.
(٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢: ١٧٨.
(٤) ظ: صحيح البخاري (كتاب العلم) ١: ٢٩، السيوطي: الاتقان ٤: ٢٣٠.
(٥) ابن تيمية: مقدمة في تفسير القرآن ٣٨.

على القول عن الهوى والاستحسان وكيف كان)[١]؛ إذ نلاحظ من الروايات النبوية نهيا شديدا عنه كما في قوله ﷺ:

(من فسّر القرآن برأيه فليتبوأْ مقعده من النار)[٢].

(من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)[٣].

وينطلق النهي والتشديد فيه عند الأئمّة عليهم السلام من هذا الاطار النبوي ونلاحظ هنا أنّهم عليهم السلام في رواياتهم يحددون ثلاث صور تندرج جميعا تحت عنوان لجوء المفسّر إلى الاستمداد من غير القرآن في تفسيره وتتمثل هذه الصور في:

الصورة الأولى: التكلم في القرآن بالرأي

فممّا روي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال (منْ فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجرْ وإنْ أخطأ فهو أبعد من السماء)[٤].

ويجعل الإمام الرضا عليه السلام اللجوء إلى الرأي بمرتبة الكفر إذ يروى عنه أنّه قال (الرأي في كتاب الله كفر)[٥].

والروايات هنا تشير إلى التفسير بالرأي في قيامه على استقلال المفسر برأيه في تفسير كلامه تعالى بما عنده من الاسباب والاجتهاد وعدم الرجوع إلى غيره في فهم الكلام الالهي ممّا يوقعهُ في مغبّة أن (يقيس كلامه تعالى بكلام الناس)[٦].

ومن وجوه تأثير التفسير بالرأي المنهي عنه الجانب العقائدي بالذات إذ نلاحظ أنّ الآيات الكريمة ربما كان يتبين بعضها من بعض آخر أو يكون شاهدا عليه وهو من وجوه تفسير القرآن بالقرآن ومايقوم به المفسّر بالرأي في الحدود المنهي عنها تترتب عليه اثارٌ خطيرة تتمثل في ظهور التنافي بين الآيات القرآنية متسبب عن إبطال المفسّر وتضييعه (للترتيب المعنوي الموجود في مضامينها فيؤدّي إلى وقوع الآية في غير موقعها ووضع الكلمة في غير موضعها)[٧] ويلزم عن هذا تأويل بعض القرآن أو أكثر آياته بصرفها عن ظاهرها.

هذا المسلك الخطير لجأت إليه بعض الاتجاهات الفكرية في الاسلام فصارت تؤول نصوص القرآن بمطاطية تحاول سحب النصّ إلى مستوى التحييد التامّ عن مساره الخاص إلى مسار آخر يخدم طروحات ذلك الاتجاه ويتبعها بتأويل الآيات التي يخالف ظاهرها أسس المذهب المؤوِّل وبالتالي تحكيم أصول المذهب في النصّ المرجعي وإخراجه عن معياريته.

وقد نبّه الأئمة عليهم السلام إلى خطورة هذا التهميش للنصّ وسحبه عن محوريته إلى الدوران في فلك الآراء المختلفة كلٌّ يجره إلى محوره الذي يريد.

من ذلك مثلا مانجده في الرواية عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال عن هؤلاء: (ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم انزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم انزل الله سبحانه دينا تامّا فقصر الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائه والله سبحانه يقول ﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الانعام/٣٨). و ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل/٨٩) وذكر ان الكتاب يصدق بعضه بعضا وان لا اختلاف فيه فقال سبحانه ﴿ .. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (النساء/٨٢). وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لاتفنى عجائبه ولاتنقضي غرائبه ولاتكشف الظلمات إلا به)[٨].

الصورة الثانية: تفسير القرآن بغير علم

عن رسول الله ﷺ (من فسّر القرآن بغير علم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار)[٩].

وقوله أيضاً (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)[١٠].

وقوله ﷺ (فما علمتم منه فقولوا وماجهلتم به فكلوه إلى عالمه)[١١].

(١) الميزان ٣: ٧٦.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٧، الكاشاني: تفسير الصافي ١: ٢١، سنن الترمذي ١١: ٦٧.

(٣) الترمذي: سنن الترمذي ١١: ٦٧، الكاشاني: تفسير الصافي: ١: ٢١.

(٤) تفسير العياشي ١: ١٧.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الميزان ٣: ٧٦.

(٧) الميزان: ٣: ٨٠– ٨١.

(٨) الأحتجاج: ١: ٣٨٩.

(٩) سنن الترمذي ١١: ٦٧.

(١٠) الحر العاملي: الوسائل ١٢: ١٤٠.

(١١) السيوطي: الدر المنثور ٢: ٧.

ومن المصاديق المهمّة للتفسير بغير علم مايتمثل في التصدي لتفسير القرآن من دون علم بعلومه المختلفة التي تتظافر في مابينها لتشكل ادابا فنية وموضوعية يتسلح بها المفسر فتكون ملكة وحسا وسلاحا بيد المفسّر لامتلاك إمكانية أن ينكشف له ما أبهم على غيره ممّن افتقر إلى تلك الآداب والعلوم وهذا مايتبين بوضوح من الرواية الطويلة عن الإمام الصادق عليه السلام يقول في وصف هؤلاء (.. احتجوا بالمنسوخ يظنون أنّه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يظنون أنّه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يظنون أنّه العام، واحتجوا بأوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا إلى مايفتح الكلام وإلى مايختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم ياخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا، واعلموا رحمكم الله: أنّ من لم يعرفْ من كتاب الله عزوجل الناسخ والمنسوخ والخاص من العام، والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم، والمكّي من المدنيّ ، وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلّفة ومافيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير والمبين والعميق والظاهر والباطن والجار فيه والصفة لما قبل ممّا يدلّ على ما بعد والمؤكّد منه والمفصّل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الألفاظ والمحمول على ماقبله وعلى مابعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله)[١].

والرواية لاتحتاج إلى تعليق فمن دون هذه العلوم ومعرفة جزئياتها تفصيليا وإبداء الرأي في معاني النصّ القرآني وتصويرها على أنّها كشفا للمراد منه يعني ذلك كلّه تفسير القرآن بغير علم بحقيقة المراد فيعود تفسيرا بالرأي والهوى والاستحسان الذي لايمتّ للنصّ ومعانيه بصلة ويقع تحت نطاق المنهي عنه المذموم الخوض فيه.

الصورة الثالثة: ضرب القرآن بعضه ببعض

وردت العديد من الروايات عن الرسول[٢]ص)والأئمة عليهم السلام في النهي عن ذلك لأنّه ممّا يقع تحت نطاق تحكيم الرأي الخاص والميل النفسي بتاثيرات الاتجاه الفكري والاثر المذهبي في تفسير النص.

(١) المرتضى: الايات الناسخة والمنسوخة ٤١ تحقيق: علي جهاد الحساني.

(٢) ظ: مسند أحمد ١١: ٨٢.

فمن ذلك ماروي عن الرسول ﷺ (انه خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب فقال: لهذا ضلّتِ الامم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، قال وإن القرآن لم ينزلْ ليكذِّب بعضًا ولكن نزل ليصدِّقَ بعضُه بعضا، فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فامنوا به)[٣].

وفي رواية اخرى مشابهة عن الرسول ﷺ أيضا أنّه سمع قوما يتدارؤون فقال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنّما نزل كتاب الله ليصدّق بعضه بعضا، فلا تكذّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكِلُوهُ إلى عالمه)[٤].

فالروايتان في مجال بيان أصل مهم يقوم عليه النظر إلى النصّ القرآني يتمثّل في أنّ هذا القرآن ومن حيث كونه منزلا من عند الواحد الأحد العليم المحيط فإنّه يصدّق بعضه بعضا وإلا ثبت اللازم الآخر المقابل الذي صورته الآية الكريمة كدليل لصدوره عنه تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (النساء/٨٢) وهذا ما أكّده الإمام علي عليه السلام في رواية عنه دفع خلالها شبهة تناقض الآيات الكريمة فيما بينها عند من تصور حدوث ذلك من خلال ظواهر الآيات وعجزه عن فهم حقيقة المراد منها فتصور أنّ بعضها يكذب بعضا والرواية تقول إنّ رجلا جاءه عليه السلام، فقال يا أمير المؤمنين إنّي شككت في كتاب الله. فقال عليه السلام: ثكلتك أمّك وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟ قال: لأنّي وجدت الكتاب يكذّب بعضه بعضا فكيف لا أشكّ فيه؟ فقال الإمام عليه السلام: إنّ كتاب الله ليصدق بعضه ولا يكذب بعضه بعضا ولكنك لم ترزق عقلا تنتفع به فهاتِ ما شككتَ فيهِ من كتاب الله عزّ وجل ...)[٥] ثم قام الإمام عليه السلام برفع شبهة التناقض بين ظواهر الآيات كما تصورها هذا الشاكّ بتأويلها بما يكشف الشبه ويؤكد عصمة النصّ من التناقض والاختلاف ويرسّخ مرجعيته في تأسيس أصول عقيدة صحيحة.

من ذلك أيضا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال (ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)[٦] قال الشيخ الصدوق

(٣) السيوطي: الدر المنثور ٦:٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الصدوق. التوحيد ٢٥٥.

(٦) العياشي: التفسير ١: ١٨.

سألت ابن الوليد عن معنى هذا الحديث فقال: هو ان تجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أخرى ويبدو أنّ هذا الكلام أراد به أصحاب المذاهب والمقالات من تأويلهم الآيات التي لا تتوافق في ظاهرها مع أصول مذاهبهم بما يؤدّي إلى (اختلاط بعضها ببعض وبطلان ترتيبها ودفع مقاصد بعضها ببعض)[١].

فهذا الضرب لبعض الآيات ببعض أكثر ما يكون في الآيات التي تفصّل العقيدة وتؤسس أصولها، إذ يلجأ اولئك المتمذهبون إلى أنظارهم الخاصة وآرائهم المستقلة فيحكمون أنّها معنى للآية المعينة ويحكمون على آية أخرى برأي آخر لهم ويجمعون بين الآيتين بذلك الرأي أو يجعلون رأيهم في تلك الآية دليلا على ما اختاروه في الآية الأخرى من معنى)[٢].

وهو ما وصل حدّ النهي عنه وذمّه إلى درجة اعتباره كفرا عند الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام لأنّه يلزم منه نسبة تكذيب القرآن بعضه بعضا ووقوع التناقض فيه.

إنّ هذا الالتفات من الأئمة عليهم السلام لهذا الضابط المهم الممثل في النهي عن التفسير بالرأي لا سيما ماكان عن الأئمة المتأخرين عليهم السلام فرضته طبيعة التحولات الفكرية والتحديات العقائدية ممثلة في:

١ – ظهور الفرق الكلامية المختلفة التي تجعل القرآن يدور في فلك آرائها وتحاول تطويع النصّ لملاءمة تلك الآراء التي تتبناها.

٢ – اتساع حركة التلاقح الفكري والعقائدي للاسلام مع باقي الامم والديانات باتساع حركة الترجمة ونقل التحدي العقائدي الاسلامي إلى ساحة الاديان الاخرى والاتجاهات اللادينية بتوسع الفتوحات الاسلامية ودخول غير المسلمين في الاسلام.

بسبب ذلك كلّه كان لا بدّ من تأطير العقيدة الاسلامية المستمدّة من النصّ بعوامل الحماية من أن تنزلق الانظار المختلفة إلى مغبّة عكس هويتها المذهبية المحدودة على النصّ المعصوم المطلق.

السابع: تجرّد النصّ عن قيود الزمان والمكان والمحدودية

ان استقراء بيئة النصّ وأجواءه الواقعية الحاصلة والمتوقعة المستقبلية يقدم مستويين متصورين لعلاقة النصّ بالزمن:

الأول: المستوى النزولي المقيّد

وينطلق هذا المستوى من صلة النصّ القرآني بالسبب الذي تعلق به واستوجب نزوله سواء كان ذلك واقعة احتاجت حكما شرعيا، أم كان عائدا إلى مقتضيات تتالي النزول التجزيئي للنصّ وصولا إلى مرحلة الاكتمال.

والنصّ في هذا المستوى وحسب صلته بالسبب الأول تكون له علاقة وثيقة بالسبب قد يتقيد من بعض جوانبه بما تفرضه وقائع سبب النزول والحالة التي اختص النصّ بالتعبير عنها، مثلما تحكمه أمور أخرى إذا كان السبب هو المقتضيات المتّصلة بالنزول التجزيئي ومن تلك الأمور مثلا: السياق والنظم والوحدة الفنية والموضوعية للنصّ والإجمال والتفصيل والبيان والإبهام.. الخ

الثاني: المستوى المفتوح

هنا ينطلق النصّ في خصائصه الاحتوائية بعيدا عن مقتضيات الزمان والمكان مخلفا وراءه سبب النزول الذي ينسحب إلى تشكيل حالة جزئية نسبية لا تعدو أن تكون مجرّد اشارة بسيطة في طريقة فهم النصّ تضيء للمتصدّي لتفسيره بعض الجوانب المساعدة على تصور أجواء النزول والمعنى الأكثر صلة بمراد الله تعالى – تبعا لذلك – من خطابه حين تتعدد الاحتمالات والافهام المختلفة.

فهنا ينطلق اللفظ بعمومه المفتوح القابل للانطباق والمتحرر عن حدود الحالات الجزئية التي تقيدت بزمان أو مكان معينين فتتحول خصوصية السبب إلى أمر غير ذي اعتبار إلا بتلك الحدود الضيّقة المشار إليها وتكون العبرة في الحالة الجديدة بعموم اللفظ وقدرته على الجريان والانطباق على كلّ زمان أو مكان ما دام يتوافر فيهما الجوانب الموضوعية والمقتضيات التي جاءت الآية (النصّ) للتعبير عنها ويغطيها النزول (العموم) الأول هكذا يصبح النصّ الواحد في نزوله حالة مكثفة من النزولات المتعددة لكنّها أُدمجت جميعا في نصّ واحد تلافى التعدد الزمني بالقدرة على التعميم والانطباق وذلك ممّا استلزمته خاتمية الرسالة أولا وانتهاء عهد النبوة بانقطاع الوحي ثانيا.

ذلك كلّه من أجل تحاشي أمرين:

١ – الوقوع في مغبّة الخضوع للافهام المختلفة المستقبلية التي تدور في فلك النصّ

٢ – الوقوع تحت طائلة محاولة تفسير النصّ بواسطة الروايات

(١) الميزان ٣: ٨١.

(٢) السبزواري: المواهب ٥: ٦٩ (بتصرف).

قال علي عليه السلام : وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق

لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلاّ به

الموضوعة أو الاسرائيليات، أو التفسير بالرأي المنهي عنه.. الخ مما يجعل النصّ دائرا في فلك تلك التفسيرات والافهام وبالتالي يقتطع منه أهم خصائصه وأسس نزوله ممثلة في مرجعيته في البناء الفكري والعقائدي.

وهذا البعدُ المفتوح في الصلة بالزمن يعطي للنصّ إضافة مهمة تمثّل خصيصةً أساساً هي قوام هيمنة النصّ على غيره ومرجعيته المفتوحة زمنيا ومكانيا وموضوعيا، هذه الاضافة تتمثل في أنّ النصّ ستكون له قدرة دائمية متجدّدة في العلو والاحتواء لكلّ حالة تفرضها مقتضيات كلّ زمن متصور وحاجته إلى الاستمداد من النصّ القرآني تصويرا وإحاطة وتعبيرا وبالتالي سيكون المنظور القرآني هو السقف الذي يعلو فوق كلّ منظور يمكن أن يستمد من نواميس وضعية أو كشوف علمية أو أفهام مستضيئة بالنصّ تقيّدت بحدود زمنها.

بهذا سيحافظ النصّ على تحرره من قيود الزمن الذي يُخضَع فيه لعملية الكشف عن دلالاته وسيثبت أنّ حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة:

أولا – في جانبه التشريعي – كما سيثبت دلالة ان النصّ (تبيانا لكل شيء) ومهيمنا على غيره ومحيطا بالحاجات والمقتضيات عموما في جوانبه الاخرى.

خلاصة هذا الضابط المهم في الكشف عن النصّ والاستمداد منه إذن تتمثل في تجرده عن الارتباط بالقيود النسبية فهو تعبير لفظي تسلح باللغة في التعبير عن قوانين عامّة، وتلك الحالة الجزئية (سبب النزول) وإن ورد النصّ لمعالجتها ولكنها لن تقيده بقيودها، وإنّ نسبيتها وجزئيتها الموضوعية لا تمثّل تحديدا للنصّ ومجالا نهائيا لاحتمالات انطباقه وانما تبقى للنص خصيصة الجريان والامتداد في الانطباق على المصاديق المتجددة الظهور عبر الأزمان والأجيال والأمكنة على كل الحالات التي تعبر فيها هذه الجزئيات عن روح القانون الكلي الذي جاء به النصّ، وستمثل كلّ حالة جزئية في زمنها بالتالي أحد الافراد المنطوية تحت حكم ذلك القانون الكلي.

هذا ما عبّرت عنه القاعدة العامة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

وهذا ما أثبته النصّ القرآني لنفسه بوساطة نصوصه التي جاءت بصيغتها الخطابية واللفظية عامة ومطلقة سواء في أحكامها أم معالجاتها؛ لذا كانت خصيصة النصّ المهمة في أنّه بهيكله اللفظي وبالمعنى المستبطن (المختزن) فيه تعبيريا يبقى خالدا لخلود محتواه وعموم مفاهيمه وثبات إعجازه.

هذه القضية البالغة الأهمية في فتح إمكانات فهم النصّ وتقليده خصائصه الذاتية كاملة والخروج به عن نطاق التقييد تصدى الأئمة عليهم السلام للكشف عنها وانتزاع قواعد التعامل وأسسه مع النصّ في ضوئها وكانت عندهم من الثمرات المهمة والمؤثرات التي ساهمت في تعريفنا فيما بعد بأهلية منهج مهم في تفسير النصّ القرآني وضع الأئمة عليهم السلام أسسه وطبقوه بأنفسهم وكان من انواع التفسير التي ارتبطت بهم لاسيما بعد النبي ﷺ حتى لا نكاد نجد لغيرهم أثرا فيها؛ لأنها تعتمد ثنائية النص (الظاهر والباطن) واختصاصهم بأهلية استنطاق الباطن وفهمه والكشف عنه هذا المنهج هو منهج التفسير بالجري أو الانطباق وتنكشف أمامنا ملامح هذا الضابط المهم عندهم عليهم السلام من مجموعة روايات منها:

ما روي عن الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام انه قال (ثم أنزل القرآن نورا لا تطفأ مصابيحه وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضلّ نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه وفرقانا لا يخمد برهانه.. وبحرا لا ينزفه المنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون.. وبرهانا لمن تكلم به وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسّم)[١].

وقوله عليه السلام في موضع آخر (وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلاّ به)[٢].

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في إشارة إلى ضرورة التصدّي إلى الكشف عمّا في النصّ من معارف وإمكانات وثراء محتوى قوله عليه السلام (آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر فيها)[٣].

وفي إيحاء مهم إلى ما يكتنزه النصّ القرآني من كثافة التعبير واحتواء المعاني وجريان المفاهيم والدلالات الداعية إلى الاستنطاق يروى عن الإمام الباقر عليه السلام قوله لحمران بن أعين وقد سأله عن

(١) نهج البلاغة (تصنيف صبحي الصالح) ٣١٥.

(٢) المصدر نفسه ٦١.

(٣) الكافي (الاصول) ٢: ٦٠٩.

ظهر القرآن وبطنه: ظهره الذين أنزل فيها (زمن نزول الخطاب) وبطنه الذين عملوا بأعمالهم (أي اعمال الذي نزل فيهم فانطبق النصّ عليهم باعتباره مصداقا آخر لمعنى الخطاب) يجري فيهم ما نزل في أولئك)[١].

هذا المعنى عبّر عنه الإمام تفصيليا في رواية أخرى عنه. عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آية الا ولها ظهر وبطن وما فيه حرف إلاّ وله حدّ ولكلّ حدّ مطلع ما يعني بقوله: ظهر وبطن؟ قال: ظهره تنزيله، وبطنه تأويله منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس والقمر، كلّما جاء منه شيء وقع، قال الله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم ﴾ نحن نعلمه)[٢].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام بالغة الأهمية في دلالتها وما تومئ إليه من تحذير التجاوز على هذا الضابط وتتناول مفهوم فكّ الارتباط بين عموم لفظ الآية (النص) والبعد الزمني المقيّد بسبب النزول يقول عليه السلام (ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والارض ولكلِّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر)[٣].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام نلاحظ أعلى حالات الانطلاق بالنصّ عن قيود البعد الزماني والمكاني وفتح الآفاق أمام تعبيرية النصّ عن إحاطته واحتوائه لاحتمالات الارتقاء في كلّ زمن، وقدرته على التجدد الدائم واستنهاض القابليات المستجدة للتفسير والفهم والكشف عن مخزونه إذ يقول عليه السلام لرجل سأله: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فأجاب عليه السلام (لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة)[٤].

هذا المعنى يزيده الإمام الرضا عليه السلام تأكيدا بقوله في وصفِ القرآن (هو حبل الله المتين وطريقته المثلى، المؤدّي إلى الجنة والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة ولا يغثّ على الالسنة؛ لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجّة على كلّ انسان ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٥] (فصلت/٤٢).

هذه التحديدات المهمة في تحرير النصّ من قيود الزمان والمكان ينعكس عنها تحرر آخر ذو بعد بالغ الأهمية يرد في المنظور الإمامي ويتجسّد في ثمرتين مهمتين تنتجان عنه:

الأولى: إعطاء مساحة للعقل البشري المترقي أن ينهلَ في كلّ زمان من مخزون النصّ حصته في الفهم التي تتناسب مع إمكاناته المحدودة في ضوء زمنه.

الثانية: أن يفهم أن أيّ قصور في التعبير والإحاطة والاحتواء والهيمنة طارئ يعكس على النصّ إنّما هو أجنبي عن النصّ ومنافٍ لقدسيّته وعلويّته المرتبطة بمصدره القدسي المعصوم عن كلّ نقصٍ أو قصور وبالتالي فالقصور مرتبط تماما بالفهم البشري المتصدي لتفسير النص وهذا القصور أمر محتمل في أي زمان ولأي فهم إذا استحضرنا باقة من أهم خصائص النصّ القرآني (المساعدة) على حصوله والمتمثلة في تضمّنه الظاهر والباطن وتعدد الدلالات ووجود المتشابه، وشموليته ذات البعد الزماني المفتوح.

الثامن: إعتماد التأويل منهجا في التوفيق بين مايحكم به العقل وظواهر الكتاب المخالفة له وللأصول القرآنية الثابتة ،

لاسيما في تلك الآيات التي تنبني عليها أسس عقيدة مثل آيات الصفات الخبرية التي تنسب لله تعالى أعضاء وجوارح تستلزم التشبيه والتجسيم، أو تلك الآيات التي إن أخذتْ على ظاهرها ينتج عن ذلك تناقض أو على الاقل اختلاف بين تلك الظواهر. كما هو الحال مثلا في الآيات التي يستدلّ بها القائلون بالاختيار المطلق للانسان في أفعاله في قبال آيات اخرى استدلّ بها القائلون بالجبر وكآيات الرؤية نفيا او جوازا؛ إذ نلاحظ في هذا الاطار أنّ التأويل يصبح ضرورة حتمية تفرضها أسس العقيدة وأصولها وينطق بها النصّ نفسه وتستوجبها خصائصه في الاحتواء على المتشابه والظاهر والباطن والمبهم والمجمل وجريان النصّ على المصاديق المتعددة بعد ارتفاع قيد الزمان والمكان.

هذا الضابط –في اللجوء إلى التأويل– يتبيّن في آثار الأئمة عليهم السلام

(١) العياشي ١: ١١.
(٢) المصدر نفسه ١: ١١.
(٣) المصدر نفسه ١: ١٠.
(٤) المجلسي: البحار ٢: ٢٨٠.
(٥) الصدوق: عيون اخبار الرضا: ٢: ١٣٠.

قال الإمام الباقر عليه السلام : ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والارض، ولكلّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر

بتأكيدٍ غير مباشرٍ منهجهم التطبيقي في التعامل مع الآيات السابق ذكرها باللجوء فعليا إلى تأويل الآيات التي تضمّنت الخصائص المارّة الذكر ودلّت عليها وأسست للعقيدة أصولاً ثابتة.

وسيتطرق البحث عند الحديث عن أنواع التفسير عند الأَئمة عليهم السلام في الجانب التطبيقي من هذا المبحث إلى عديدٍ من الروايات التي تمخّضت عن التعبير عن منهج الأَئمة في التأويل وأسبقيتهم إلى وضع أسسه في استنطاق النصّ وكشف معانيه وهذه الأسبقية.

وأولهم في هذا المضمار الإمام علي عليه السلام فلهُ الأسبقية في تحكيم العقل وفي (الدفاع عن مبادئ الإسلام والتوفيق بين العقل وظاهر الوحي)[١].

التاسع: استبعاد المناهج الباطلة والوسائل المنحرفة عن ساحة الأهلية

وذلك للكشف عن معاني النصّ ودلالاته، والنهي عن معاملة النصّ في ضوء ضوابطها وبالتالي رفض ثمرات تلك المناهج ممثلة فيما تتمخّض عنه من اعتقادات وآراء باطلة تفسد العقيدة وتشوه ملامحها المستمدّة من النصّ وتؤدّي إلى تخريب الإرث الفكري الإسلامي المنبثق عنه وأهم تلك المناهج ما تمثل في الغلاة وفهمهم للنصوص وتأويلاتهم الباطلة التي يخرجون بسببها عن الإسلام فضلا عن التشنيع ومن أوضح الوسائل التي نهى الأَئمة عليهم السلام عن اتباعها في طريق فهم النصّ الاسرائيليات وما قدمته من تفسيرات أو مناسبات أو تفصيلات يتقاطع كثير منها مع أسس العقيدة الاسلامية وثوابتها[٢] .

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية لمنهج الأَئمّة في فهم النصّ القرآني

نلاحظ في مجال تطبيق أسس تفسير النص وضوابطه وكشف معانيه ومراميه وتحكيم معياريته وتأكيد مرجعيته أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد اتجهوا اتجاها خاصّا في فهم النصّ له خصائصه ومميّزاته المتفردة بين اتجاهات التفسير ذات الأبعاد الموضوعية أو التاريخية ولتشكيل تصور متكامل عن الملامح التطبيقية لمنهج الأَئمة عليهم السلام فإنّه لا بدّ من أمرين:

١ – استقراء أنواع تفسير النصّ الوارد عن الأَئمة عليهم السلام في رواياتهم.

٢ – الكشف عن اثر الأَئمة عليهم السلام ومنهجهم في تأصيل ملامح أسس العقيدة وأصولها التي تمثّل المنهج الكلامي المتفرد للائمة عليهم السلام وهو بذاته أهم المنطلقات تأثيرا في تشكيل ملامح المنظومة الكلامية لمتكلمي الإمامية لذا فلا بدّ من متابعة هذين الملحظين:

الملحظ الأول: أنواع التفسير عند الأَئمة عليهم السلام

لو شئنا الكشف عن مناهج التفسير التي نجد لها تأصيلا في تفسير الأَئمة عليهم السلام لوجدنا انهم فسروا القرآن بحسب مقتضيات كل نصّ وفقا لمناهج مختلفة.

واذا كان ممّا لا يسع هذا البحث كشف كل تلك المناهج المتصورة واستقرائها فإنّه يمكن أن نلمح أوضح تلك المناهج وورودا فيما روي عنهم عليهم السلام متوخّين منها ما كان معتمدا فهمهم الخاص ربطا أو تحليلا وما تبين فيه تطبيق ضوابطهم المتفردة وبالتالي ستخرج بعض أنواع التفسير عن ساحة البحث هنا بحسب هذه التحديدات ويمكن تلخيص البحث في الانواع الأخرى على الآتي:

١. منهج تفسير القرآن بالقرآن:

تأكد لنا سابقا أهمية هذا المنهج في التفسير (الفهم) للنصّ القرآني فضلا عن أنّه من ركائز المنهج الصحيح واليقيني في فهم النصّ وكان الالتزام بالقرآن باعتباره مرجعية أولى في فهمه بما ينطق عن ذاته وكونه ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ (النحل/٨٩) ولم يفرط فيه من شيء ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الانعام/٣٨).

وثبت لنا استحالة أن يكون الكتاب كذلك ويفرط بأهم ركيزة فيه وهي قدرته على أن يبين نفسه فيكون مفهوما عند المخاطبين به.

ونلاحظ أنّ الأَئمة عليهم السلام كانوا أول من فتق البحث في هذا الضابط المهم في تصديهم لاستنطاق النصّ بما أسس ملامح منهج تفسير القرآن بالقرآن باعتباره مصداقا لوصف الرسول صلى الله عليه وآله للقرآن أنّه (ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض)[٣].

(١) محمد جواد مغنية: فلسفات اسلامية ٧٥٩.
(٢) انظر للتفصيل في ذلك: مثلاً الطبرسي: الاحتجاج ٢: ١٩٩ وما بعدها.
(٣) مسند أحمد ١٠: ٢٣٠، ١١: ٣٠.

فكان هذا المنهج هو الطريق السويّ الذي اتبعوه عليهم السلام وهم معلمو القرآن و الهداة إلى ما جاء به.

وقد لاحظ الباحث أنّ تطبيق هذا المنهج يرد عن الأئمة عليهم السلام بعدة أشكال منها:

أ - تفسير الآية بالآية:

وقد بلغت الروايات في ذلك العشرات ساكتفي ببعضها بحيث يكون الاختيار في أشكال هذا المنهج أو المناهج الأخرى واقعا على تفسيراتهم عليهم السلام للآيات المتضمنة لأصول العقيدة دون الخوض في الآيات المتعلّقة بالجوانب الأخرى، الاخلاق والاجتماع والاحكام.. الخ لنلمح من ذلك أثر تفسير الأئمة عليهم السلام في توجيه سير منظومة الاعتقادات عند الإمامية وأثرها في منهج متكلميهم.

من ذلك مثلا ما ورد عن الإمام علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿ صراط الذين انعمت عليهم ﴾ (الفاتحة/٦)، ففي مجال بيان من المنعم عليهم وطبيعة النعمة يقول عليه السلام (أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك لا بالمال والصحّة فقد يكونون كفارا أو فساقا قال عليه السلام: وهم (أي المنعم عليهم) الذين قال الله (فيهم): ﴿ ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ﴾ (النساء/٦٩).

ومن ذلك أيضا ما روي عنه (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصِرون ﴾ (يوسف/٤٩)، إذ يصحح فهما خاطئا وقع فيه كثيرون من خلال استحضاره للنصّ القرآني الذي يفسّر الآية واعتماد القراءة الصحيحة للنصّ الذي كان الخطأ فيها سببا لهذا الفهم الخاطئ إذ أنّ رجلا قرأ الآية على الإمام عليه السلام على البناء للفاعل بفتح الياء في (يَعصرون) فقال الإمام عليه السلام ويحك أي شيء يعصرون، يعصرون الخمر؟ قال الرجل يا أمير المؤمنين كيف أقرؤها؟ فقال عليه السلام: إنّما نزلت ﴿ وفيه يُعصرون ﴾ أي يمطرون بعد سنيّ المجاعة والدليل على ذلك (بأنّ المقصود الأمطار) قوله تعالى ﴿ وانزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجا ﴾[1] (النبأ/١٤).

وهناك روايات أخرى عنه عليه السلام في هذا الاتجاه التفسيري للآية بالآية.

ومن ذلك أيضا المروي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام إذ دخل رجل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا رجل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: فسألته عن الشاهد والمشهود فقال نعم: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فسألته عن ذلك فقال: أمّا الشاهد فيوم الجمعة وأمّا المشهود فيوم النحر.

فجزتهما إلى غلام كأن وجهه الدينار[2] وهو يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت أخبرني عن شاهد ومشهود. فقال: نعم أمّا الشاهد فهو محمّد صلى الله عليه وآله وأمّا المشهود فيوم القيامة أمّا سمعت الله سبحانه يقول ﴿ يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ (الاحزاب/٤٥)، وقال ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ (هود/١٠٣).

فسألت عن الأول فقيل عبد الله بن عباس (رض) وسألت عن الثاني فقيل ابن عمر(رض) وسألت عن الثالث فقيل الحسن بن علي[3] عليه السلام.

وروي عن الباقر عليه السلام روايات عديدة في ذلك منها ما عن زرارة بن أعين قال:

قلت له عليه السلام ﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا.. ﴾ (الاعراف/١٧٢).

فقال عليه السلام: أخرج الله من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا وهم كالذر فعرفهم نفسه وأراهُم نفسه[4] ولولا ذلك ما عرف أحد ربه وذلك قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ﴾[5] (لقمان/٢٥).

وفي لمحة من تفسير آيات الصفات الخبرية نجد الإمام عليه السلام ينزه الباري عن الجسمية والتشبيه فقد سئل عن قوله تعالى ﴿ يا ابليس

(١) القمي: التفسير ١: ٣٤٦.

(٢) لعله اراد به الوجه المدور المشرق.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان ١٠: ٤٦٦.

(٤) لا بد هنا من تأويل هذا النص وإلا فهو يختلف مع آيات اخرى نافية للرؤية عن الإمام الباقر وباقي الأئمة عليهم السلام. فان هذه الرؤية هي الرؤية القلبية حيث انهم مازالوا في هيئة الذر لم يتلبسوا بعد بالاجساد ويتسلحوا بالحواس والجوارح.

(٥) تفسير العياشي ٢: ٤٠.

ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديَّ ﴾ (سورة ص/٧٥)، فقال عليه السلام: اليد في كلام العرب القوة والنعمة قال الله تعالى ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الايد ﴾ (سورة ص/١٧)، وقال ﴿ والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ﴾ (الذاريات/٤٧)، وقال ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي بقوة)[1].

وعن الصادق عليه السلام أنّه قال في قوله تعالى ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ (النحل/٤٣)، قال عليه السلام: الذكر محمد صلى الله عليه وآله ونحن أهله المسؤولون)[2] ذلك في اشارة إلى قوله تعالى ﴿ قد انزل الله إليكم ذكراً (رسولا يتلوا عليكم آيات الله... ﴾ (الطلاق/١٠-١١).

وممّا روي عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث له في عصمة الانبياء، عن أبي الصلت الهروي أنّه عليه السلام قال ... (وأمّا قوله ﴿ وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه ﴾ (الانبياء/٨٧) إنّما ظن بمعنى استيقن أن لن نضيق عليه رزقه ألا تسمع إلى قول الله عز وجل ﴿ واما اذا ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ (الفجر/١٦) أي: ضيق عليه رزقه)[3].

ب - التفسير بالسياق:

من أشكال تفسير القرآن بالقرآن نفسه اعتماد السياق في تفسير الآيات فالقرآن الكريم باعتباره كلاما فلا بدّ من ذلك لأجل فهمه وليكون المفسّر في جو النصّ والوقوف على معانيه أن يحيط المفسّر بالسياق القرآني الذي لا غنى له عن اتباعه كونه حجّة من القرآن ذاته حيث يمثل أهم ركائز النظم القرآني الذي (يعتني بالمناسبة بين الآيات والفاظ الآية الواحدة)[4].

يصور الزركشي أهمية السياق بقوله (اذا لم يرد النقل عن السلف فطريق فهمه هو النظر إلى مفردات الألفاظ من اللغة العربية ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق)[5].

ويؤكد السيوطي وجوب مراعاة السياق بتأكيد مراعاة المفسّر للمعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام من خلال ملاحظة الارتباط بين المفردات)[6].

وهكذا فإنّ السياق يكشف عن المعاني المرادة في الألفاظ ويهدف إلى فهمها (من دوال أخرى لفظيّة، كالكلمات التي تشكّل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلامًا واحداً مترابطًا، أو حاليّة كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع)[7].

وتنطلق أهلية السياق هنا وخصوصيته في هذا الكشف من (اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة وإنّ فهم بعضه متوقف على فهم جميعه واعتبار السورة كلّها أساسا في فهم آياتها واعتبار الموضوع فيها أساسا في فهم جميع النصوص التي ورد فيها)[8].

وبالتالي فإغفال السياق يؤدّي إلى الوقوع في كثير من الأخطاء التي تفصم عرى هذه الوحدة الموضوعية للنصّ وتحيّده عن مقاصده ومراميه.

من أهم أمثلة ذلك ما حصل عند المجبرة مثلا في المنهج التجزيئي باقتطاع النص وفصم السياق واللجوء إلى منهج (التطبيق) – وليس التفسير – الذي يقوم على سحب النصّ تعسفا وفرض رأي المذهب أو الاتجاه التفسيري كتفسير وحيد له إذ نراهم يستدلّون بالآية الكريمة قوله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (الصافات/٩٦). على (أن ذلك يدلّ على أنّ الله خالق لافعالنا)[9] في حين أنّ الملاحظ في السياق الذي جاءت فيه الآيات أنّها (حكاية لقول ابراهيم عليه السلام مع قومه واستنكاره لعبادتهم الأصنام والتي هي اجسام والله تعالى هو المحدث لها)[10] وهذا ما تصوره الآية السابقة على هذه الآية والمرتبطة بها لتصوران احتجاج ابراهيم عليه السلام على قومه في قوله تعالى على لسانه ﴿ اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ (الصافات/٩٥-٩٦).

هذه الضوابط المهمة والأثر الكبير للسياق نجده قد وُظِّفَ بتمييز في تفسير الأئمة عليهم السلام للنصّ القرآني بما شكل ملامح منهج متميز يكشف عن النصّ ويبعد كلّ شبهة تناقض أو اختلاف فيه

(١) التوحيد ١٥٣.

(٢) ظ اصول الكافي ١: ٢١٠.

(٣) الصدوق عيون اخبار الرضا ع ١: ٢٠١ دار العلم/قم/١٣٧٧ هـ الكاشاني تفسير الصافي ٢: ١٠٣.

(٤) الزركشي، البرهان ٢: ١٣.

(٥) البرهان في اعجاز القرآن ٢: ١٧٢.

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٤: ٢٢٧.

(٧) البلاغي (محمد جواد): آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ٣٧٢.

(٨) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٩٦ دار الفكر بيروت ط ١.

(٩) الطوسي: التبيان ٨: ٤٧.

(١٠) الطوسي: التبيان ٨: ٤٧.

ويؤكّد الوحدة الموضوعية وإليك نماذج من تفسير الأئمة عليهم السلام للنصّ بالسياق:

فمما روي عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام انه سئل عن ﴿ الصمد ﴾ فكتب[١]: بسم الله الرحمن الرحيم فقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار[٢]، وإنّ الله سبحانه فسّر الصمد فقال ﴿ الله احد الله الصمد ﴾ ثم فسّره فقال: ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ﴾ (الاخلاص/٢-٤).

ومن ذلك ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام ان حمران بن أعين سأله[٣] عن قوله تعالى ﴿ انا انزلناه في ليلة مباركة ﴾ (الدخان/٣) فقال عليه السلام: نعم ليلة القدر في كل سنة من شهر رمضان في العشر الاواخر فلم ينزل القرآن الا في ليلة القدر قال الله عز وجل ﴿ فيها يفرق كل امر حكيم ﴾ (الدخان/٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام إنّه سُئِل عن قوله تعالى ﴿ هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ (الفتح/٤)، فقال عليه السلام: الايمان، قال عز من قائل ﴿ ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ﴾ (الفتح/٥)[٤].

وعن الإمام الرضا عليه السلام إنّ أبا مرة المحدّث سأله عن الرؤية – في حديث طويل – فنفاها الإمام عليه السلام واستدل على ذلك بانه لا يجوز ان يأتي الرسول صلى الله عليه وآله بالقرآن وآياته التي تنفي الرؤية ثم يحدث بحديث يجوزها – وهو الحديث الذي احتج به أبو مرة – وهنا قال أبو مرة فانه تعالى يقول ﴿ ولقد رآه نزلة اخرى ﴾ (النجم/١٣) فقال الإمام عليه السلام ان بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (النجم/١١) يقول ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم اخبر بما رأى فقال ﴿ لقد رأى من ايات ربه الكبرى ﴾ (النجم/١٨) فآيات الله عز وجل غير الله وقد قال ﴿ لا يحيطون به علما ﴾ (طه/١١٠) فاذا رأته الابصار فقد احاطت به العلم ووقعت المعرفة)[٥].

٢. منهج التفسير بالجري (الانطباق، المصداق)

ربما يكون هذا المنهج ممّا انفرد به أئمة أهل البيت عليهم السلام فوضعوا أسسه الخاصة بهم في فهم النصّ ، ولهذا التفسير خصوصية علمية ذات بعد مرتبط بالقدرة على استنطاق باطن النصّ وكشف معانيه كشفاً يزيل عنها كلّ حجب وحدود ظاهر الألفاظ وقيودها لينطلق إلى باطن الآية وقدرتها على الشمولية وكسر قيود الزمان والمكان والقدرة على الانطباق على معانٍ متجددة تمثل مصاديق يشملها النصّ.

والملاحظ هنا ان كثيرا من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير النصّ القرآني هي من قبيل بيان المصداق وتحقق جريان معاني الآيات ودلالاتها عليه وان اختلف هذا المصداق من حيث درجة الظهور والخفاء.

هذا المنهج التفسيري يتحرر من الارتباط بعامل الزمن وأثره في فهم النصّ الذي يتمثل في سبب النزول باعتبارها قضيةً يستفاد منها للوقوف من خلالها على المعنى الذي يتضمنه النصّ القرآني باعتبار معرفة سبب النزول (طريقا قويا في فهم معاني الكتاب العزيز والاستعانة بسبب النزول لدفع توهّم الحصر)[٦] فالحوادث والحاجات التي تمثل سببا للنزول في كثير من آيات القرآن الكريم أهميتها هنا لا تنسحب إلى أكثر من معرفة الآية وما فيها من معنى ودلالات وإلا فإنّ (ما ورد من شأن النزول وهو الأمر أو الحادثة التي تعقب نزول آية او آيات في شخص أو واقعة لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضي الحكم بانقضائها ويموت بموتها لأنّ البيان عام والتعليل مطلق، فإنّ المدح النازل في حق أفراد من المؤمنين، أو الذم النازل في حقّ آخرين معللا بوجود صفات فيهم لا يمكن قصرها على شخص مورد النزول مع وجود عين تلك الصفات في قوم غيرهم وهكذا)[٧].

والقرآن الكريم نفسه يؤكد هذه الحقيقة يقول تعالى ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ (المائدة/١٦).

فالنصّ القرآني العام الذي نزل بسبب خاص معين (يشمل بنفسه أفراد السبب وغير أفراد السبب لأنّ عمومات القرآن لا يعقل أن توجه إلى شخص معين)[٨].

هذا التحديد نجده ممثلا بوضوح في مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام بمعنى (الجري) والذي ينسجم تماما مع القاعدة العامة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

فالأئمة عليهم السلام درجوا على اتباع هذه القاعدة وكانت محور هذا المنهج التفسيري عندهم فنجدهم يطبقون معنى الآية من القرآن على ما يقبل أن تنطبق عليه من الموارد وإن كان خارجا عن مورد النزول والاعتبار يساعد على هذا (فالقرآن نزل هدى للعالمين ... وما بينه من الحقائق النظرية حقائق لا تختصّ بحال دون حال ولا زمان دون زمان وما ذكره من فضيلة أو رذيلة وما شرّعه من حكم عملي لا يتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع)[١].

هذا الضابط المهم كان للائمة عليهم السلام في تصديهم لتفسير النصّ أثرٌ بارزٌ في تفعيله لكشف دلالات النصّ التي لا تظهر لكل ذي فهم وتستلزم فهما خاصا قادرا على استحضار إمكانات النصّ التي ينطق بها إيحاءً بما يمثل استبطانا يستدعي آفاقا واسعة يتحرك في إطارها، وهذا الضابط هو ما عبر عنه الإمام الباقر عليه السلام فيما روى عنه ابو بصير قال سألته عن الرواية (ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيها من حرف إلا وله حدّ ولكلّ حدّ مطلع ما يعني بقوله (ظهر وبطن)؟ قال عليه السلام: ظهره تنزيله وبطنه تأويله منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس والقمر كلّما جاء منه شيء وقع)[٢].

هذه السعة المتصورة في شمول النصّ تبعده إلى آفاق بعيدة من التحرر من قيد سبب النزول وموروده ذلك التقييد الذي يعده الأئمة عليهم السلام إماتة للآية.

قال الإمام الباقر عليه السلام (ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن من شيء ولكن القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السموات والارض ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر)[٣].

ومن ملامح توافر (التنزيل) على هذا (الجري): انطباق الكلام بمعناه على المصداق كانطباق قوله تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (التوبة/١١٩) على كل طائفة من المؤمنين الموجودين في الأعصار المتأخرة عن زمان نزول الآية وهذا نوع من الانطباق، وكانطباق آيات الجهاد على جهاد النفس، وانطباق آيات المنافقين على الفاسقين من المؤمنين.. الخ)[٤].

والخلاصة في أهلية هذا المنهج بل ضابطيته في التفسير واستحضاره الافاق الواسعة في فهم النصّ وتقرير شموليته تقوم على أساس (أنّ للقرآن اتساعا من حيث انطباقه على المصاديق وبيان حالها فالآية منه لا تختصّ بمورد نزولها بل تجري في كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكا كالأمثال التي لا تختصّ بمواردها الأول بل تتعداها إلى ما يناسبها وهذا المعنى هو المسمّى بجري القرآن)[٥]، والذي وردت العشرات من الروايات عن الأئمة عليهم السلام في تفسير القرآن وفق ضوابطه وأسسه كبيان لبعض المصاديق التي تنطبق عليها الآيات.

من ذلك مثلا ما ورد عن الإمام علي عليه السلام إنّه قام اليه رجل فقال: (يا أمير المؤمنين ما الآية التي نزلت فيك؟ فقال عليه السلام اما سمعت الله يقول ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ (هود/١٧)، فرسول الله صلى الله عليه وآله على بينة وانا الشاهد له ومنه)[٦].

وأكد الإمام الرضا عليه السلام هذا التفسير للآية نفسها فقال (أمير المؤمنين عليه السلام الشاهد على رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله صلى الله عليه وآله على بينة من ربه)[٧].

كذلك قول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير آية النور انه قال في قوله تعالى ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ (النور/٣٥): المشكاة نور العلم في صدر النبي صلى الله عليه وآله ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ الزجاجة صدر علي عليه السلام صار علم النبي صلى الله عليه وآله إلى صدر علي عليه السلام ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة ﴾ قال: نور ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال: لا يهودية ولا نصرانية ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يكاد العالم من آل محمد صلى الله عليه وآله ان يتكلم بالعلم قبل ان يسئل ﴿ نور على نور ﴾ يعني اماما مؤيدا بنور العلم والحكمة في اثر امام من آل محمد صلى الله عليه وآله وذلك من لدن آدم حتى تقوم الساعة)[٨].

وعن الإمام الصادق في معنى قوله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ﴾ (سورة البقرة/١٢١)

---

(١) الصدوق: التوحيد ص ٩١.
(٢) مسند أحمد ٣: ٢٤١، ٤: ١٤١.
(٣) الكاشاني: تفسير الصافي ١: ٤١.
(٤) اصول الكافي، ٢: ١٥.
(٥) التوحيد: ١١١.
(٦) السيوطي: الاتقان ١: ١٠٧.
(٧) الطباطبائي: الميزان ١: ٤٢.
(٨) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ١٥٩.

(١) الطباطبائي: الميزان ١: ٤٢.
(٢) تفسير العياشي ١: ١١.
(٣) المصدر نفسه ١: ١٠.
(٤) الطباطبائي الميزان ١: ٧٢.
(٥) المصدر نفسه ٣: ٦٧.
(٦) تفسير العياشي ٢: ١٤٣.
(٧) الكافي (الاصول) ١: ١٩٠.
(٨) الصدوق: التوحيد ١٥٨.

قال عليه السلام: هم الأئمة(١) عليهم السلام.

وعنه عليه السلام أيضا في تفسير ﴿ الصراط المستقيم ﴾ (الفاتحة/٥) انه: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(٢) عليه السلام.

ولا يسع البحث أن يتوسع في إيراد كثير من الروايات في هذا الباب ولمن شاء ذلك الرجوع إلى المجموعات الحديثية والتفسيرية كالكافي (الاصول)، ومن لا يحضره الفقيه والتوحيد للصدوق والاحتجاج للطبرسي وتفسيري القمي والعياشي وموسوعة البحار وغيرها.

هذان المنهجان إذن من مناهج التفسير عند الأئمة عليهم السلام هما الاكثر بروزا في الروايات مع وضوح خصوصية فهم الأئمة عليهم السلام وإلا فهناك كثيرٌ من الروايات عنهم عليهم السلام في تفسير الآيات القرآنية باعتماد السنة المشرفة أو التفسير المنطلق من أسس اللغة وفنونها البيانية والبلاغية.. الخ وهو ما يمكن الرجوع فيه إلى المصادر السابقة الذكر نفسها.

الملحظ الثاني: تأصيل الأئمة لأصول العقيدة انطلاقا من النصّ القرآني

إذا كان القرآن الكريم قد استكمل في جانب من الخطاب الموحى به قواعد الحياة العملية وطبيعة التعبير عن طقوس العبادة والمعاملات ممثلة بالشريعة فإنّ الجانب الأكبر من هذا الخطاب اختصّ بتأسيس أصول العقيدة وإقامة صرح تصور عن الطبيعة وما وراء الطبيعة (ميتافيزيقا) كاملة وتصور إسلامي متكامل للمنظومة (الكلامية) التي لا يمكن لأيّ دين أن يكون بدونها رابطا بين العابد والمعبود.

والأئمة عليهم السلام وهم عدل القرآن والمستنطقون والمؤهلون لكشف معانيه ودلالاته كانوا أولى من يتحمّل مسؤولية الكشف عن تلك الأسس المشكّلة للعقيدة باعتبارها خطوة أولى تستلزم بعدها بناء منهج إثباتها والبرهنة عليها ليتمّ بالتالي تقديمها إلى متلقيها من أهل العقيدة أو مناوئيها وبالتالي فقد اندرجت في هذه المهمة عند الأئمة عليهم السلام ثلاثة مراحل مهمة تمثل فيما بينها منهجا تكامليا مكونة ملامح التصور الإمامي للعقيدة وأصولها بما يمكن تلخيصه في:

١ - منهج تعرّف العقيدة وكشف أسسها.

٢ - منهج إثباتها والبرهنة عليها.

٣ - منهج توصيلها وبيان تفاصيلها.

أولا: منهج التعرف

كان لمجموعة من العوامل المؤثّرة في محيط النزول القرآني مكانيا وفكريا ممثلة في:

١- تركيز الخطاب العقائدي القرآني القائم على تأكيد حجية العقل ومساحة فاعليته في الفكر الانساني عموما وكونه مناطا للتكليف وبالتالي الدعوى القرآنية للتدبر والتفكر في الآيات الانفسية والآفاقية.

٢- شيوع البحث العقلي عند المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله والموقف الدفاعي الذي كان لا بدّ من اتخاذه أمام العقائد والملل والافكار المضادّة القادمة من خارج الحدود أو المتجذّرة داخلها، ثمّ التوجه الفكري الذي صبغ مراحل تاريخية مهمة بصبغته وذلك بانشغال المسلمين بالبحث الفلسفي.

٣- ظهور اتجاه ينحدر من أصول تعود إلى الصحابة والتابعين (رض) يقوم على التعبّد بظواهر النصوص والابتعاد عن الخوض في المجادلات والنظر والبحث عن تأويلات وتفسيرات ربما خيف – وهو خوف سلبي – ان تشغل المسلمين بمناقشاتها وهو اتجاه يعوّم النص ويهمش الجانب الاكبر من الخطاب القرآني في ضوء رؤية قائمة على الحدود الضيقة لظواهره.

٤- بروز اتجاه آخر مهم وله خطورة كبيرة ذات تأثير واضح فيما بعد ناتج عن اختلاف الفرق في فهمها للنصّ القرآني وبالتالي إخراج النصّ القرآني من مرجعيته ومحاولة إخضاعه لما يوافق الآراء المذهبية ليعود ذلك (تطبيقا) أبعد ما يكون عن (التفسير) للنصّ.

هذه العوامل المهمة كان لها أثر كبير في تصدي الأئمة عليهم السلام لمهمة تأسيس منهج ورؤية عقائدية تكوّن المنظور القرآني الذي تتمثل فيه القدرة على سدّ أيّة ثغرات قد تتسبب عن مثل هذه العوامل التي عايش بعض الأئمة عليهم السلام ظهور تأثيرها أو أنّهم أدركوا حتمية ظهورها في الأفق الفكري الاسلامي فاستوجب ذلك منهم عليهم السلام وضع تلك الأسس والتصدي للمهمة الصعبة.

(١) تفسير العياشي ١: ٥٧.

(٢) المصدر نفسه ١: ٢٤.

ونجد هذا متمثّلا بوضوح في أنّ البحث العقلي وجد اهتماما كبيرا عند الأئمة عليهم السلام وشيعتهم. ففي الوقت الذي نجد أنّ أغلب الصحابة يبتعدون عن الخوض في المسائل العقلية والبحوث العالية ويعتقدون أنّ القرآن الكريم أغناهم عن الخوض فيها أو نهى عن تجاوز الحدود المرسومة فيه(١)، وإنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يصرفهم في بداية البعثة عن الخوض فيما يحيد بهم عن القصد ومرحلة بناء الركائز، في هذا الوقت نجد ان الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام قد تصدى للمهمة الجليلة بوضع أسس الكشف عن منظومة العقائد الاسلامية الكلامية بواسطة تعرفها وبلورة مفاهيمها انطلاقا من النصّ القرآني وكان من أهم ملامح هذا التصدّي عنده عليه السلام:

١- أسبقيته عليه السلام إلى تأويل ظواهر الكتاب وتحكيم العقل في الدفاع عن الدين، والتوفيق بين العقل وظاهر الشرع(٢).

٢- بيان ملامح العقيدة والمنظور القرآني لأسسها فيما ورد عنه عليه السلام من الروايات التي بلغت المئات وتضمنتها كتب التفسير والعقائد واشتمل (نهج البلاغة) على كثير منها ممّا يتناول الحكمة والمباحث التوفيقية ومفاهيم التوحيد والعدل حتى أنّ تفرده في ذلك واضح بحيث (لا نجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلهم كلمة واحدة من ذلك)(٣) حتى صار العلم الإلهي وهو أشرف العلوم (من كلامه اقتبس وعنه نقل واليه انتهى ومنه ابتدأ)(٤).

وللإمام عليه السلام فضل رجوع اتجاهات البحث الكلامي كافة إليه في أصولها المعتمدة المستمدّة من فهم النصّ القرآني إذ صار (جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه انما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الاصول)(٥) التي اسسها الإمام عليه السلام ووضع أصولها فمنه أخذت.

ففضلا عن الإمامية والزيدية – وصلتهم به واضحة ظاهرة – فإنّ المعتزلة والأشعرية يرجعون إليه وعنه تعلموا أصولهم(٦).

واتخذ الأمر الاتجاه نفسه مع الأئمة الباقين عليهم السلام من بعده كلّ بحسب قوة ظهور تأثير تلك العوامل – السابقة الذكر – وطبيعة الظروف الفكرية والسياسية وتمثل بروز ذلك واضحا عند الإمام الباقر عليه السلام الذي (تشعب البحث الكلامي في عصره وظهرت آراء المعتزلة العقلية وكثر الجدل حول ذات الله وصفاته ...)(٧).

وكذلك الإمام الصادق عليه السلام الذي ظهرت في وقته عديدٌ من المشكلات الكلامية كمشكلة خلق الافعال(٨) وكانت له وقفة كبيرة في وجه الملحدين والمشككين(٩) وتحدثت عنها كتب العقائد والاحتجاج عند الإمامية.

وكان من أهم ملامح المنهج التأويلي عند الإمام علي عليه السلام والأئمة من بعده أنّهم تصدّوا لتنزيه الباري عن التجسيم ومكافحته ودفع شبه المشبهة وخرافاتهم في ذلك. يقول القاضي عبد الجبار (وأمّا أمير المؤمنين فخطبه في بيان نفي التشبيه وإثبات العدل أكثر من أن تحصى)(١٠).

ويقول البغدادي: قال أمير المؤمنين (رض) (إنّ الله تعالى خلق العرش إظهارا لقدرته لا مكانا لذاته) وقال أيضا (قد كان ولا مكان وهو الآن على ما كان)(١١) وهو عليه السلام القائل (ما وحدّه من كيّفه ولا حقيقته أصاب من مثّله ولا إيّاه عنى من شبهه ولا حمده من اشار اليه وتوهّمه)(١٢).

ولو شاء الباحث إيراد ما صدر عنهم عليهم السلام من الروايات في توضيح أصول العقيدة وأسسها لاحتاج ذلك إلى مجلدات ضخمة وهو ما تصدت له مجموعة من المجاميع الكلامية والحديثية عند الإمامية على رأسها:

١ – أصول الكافي للكليني (ت ٣٢٩هـ).

٢ – التوحيد للصدوق (ت ٣٨١ هـ).

٣ – الاحتجاج للطبرسي أبو منصور علي بن ابي طالب (ت

(١) النشار (علي سامي) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٤ (بتصرف منشأة المعارف الاسكندرية – مصر ط٢ ١٩٦٢م.

(٢) ظ: محمد جواد مغنية: فلسفات اسلامية ٧٥٩.

(٣) احمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ص ٢٦٩.

(٤) ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة ١: ١٧.

(٥) الشريف المرتضى: الامالي ١: ١٤٨.

(٦) ابن ابي الحديد: شرح النهج ١: ١٧.

(٧) ظ احمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ص ٣٦٠.

(٨) ايضا ص ٣٦٦.

(٩) ظ: محمد الخليلي، امالي الإمام الصادق ١٦٥ وما بعدها، وانظر: الصدوق، التوحيد، الطبرسي، الاحتجاج.

(١٠) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ١٦٣ طبع تونس ١٩٧٤.

(١١) الفرق بين الفرق ٢٠٠.

(١٢) نهج البلاغة (١٨١).

حوالي ٦٢٠هـ).

٤ –البحار للمجلسي (ت ١١١١ هـ).

ثانيا: منهج الاثبات والبرهنة

من خلال متابعة المجموعات الكلامية والحديثية السابقة الذكر واستقراء روايات الأئمة عليهم السلام في بيان أسس العقيدة والدفاع عنها نلاحظ أنّ علم الكلام باعتباره درسا عقائديا تتمثل مهمته في الأساس في صورتين:

١ – مهمة تنويرية: هدفها تنوير الفهم الإسلامي للفرد ورقيه في إدراك مضامين عقيدته وتعميق إطلاعه على مفاهيمها الواردة في الخطاب الديني كتاباً أو سنة من مثل ما يرجع البحث فيه إلى الخالق ووجوده وصفاته والقضاء والقدر والنبوة وعصمة الانبياء والإمامة والمعاد... الخ.

ونلاحظ أنّ الأئمة عليهم السلام قاموا بهذه المهمة خير قيام وهو ما بيّنه البحث في المقصد السابق.

٢ – مهمة دفاعية: تمثل الوازع الرئيس العقلي في الإسلام ثمّ شكلت الغرض الأساس من ظهور علم الكلام وتدوينه وتوسيع مطالبه لمجابهة التيارات المضادة والدفاع عن الدين وحفظ إيمان اتباعه بدرء الشبهات وتأصيل الحجج والبراهين وانتزاع الأدلة من الأصول القرآنية.

هذه المهمة الخطيرة كان لها نصيب وافر من الاهتمام عند الأئمة عليهم السلام تتبين بوضوح من خلال:

١– تصديهم عليهم السلام بانفسهم للمناظرة في الدين والاحتجاج على المخالفين وشرح المسائل الاعتقادية طالما سنحت الظروف لذلك بما يزيل كل إبهام أو شبهة.

٢– حثّهم لأصحابهم على الوقوف بوجه المعاندين والملحدين وأهل الشبه، وتشجيعهم على المناظرة والجدل وتكريمهم لأصحابهم ممّن أوتي القدرة على ذلك كهشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي ومحمّد بن حكيم ومحمّد بن الطيار وعلي بن منصور ومؤمن الطاق وزرارة بن أعين ويونس بن عبد الرحمن والفضل بن شاذان وغيرهم[١]. مع تأكيد أنّ ليس كل مايقوله هؤلاء يمثل رأي الأئمة عليهم السلام.

(١) انظر للتفصيل فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم: عبد الله النعمة دار مكتبة الحياة، بيروت.

فممّا يروى عن الإمام الصادق عليه السلام انه كان يقول لعبد الرحمن بن الحجاج (كلم أهل المدينة فإنّي أحب أن يرى في رجال الشيعة مثلك)[٢].

وعنه عليه السلام أيضا أنّه قال لهشام بن الحكم حين سأله عن مسائل في أسماء الله فأجابه عنها وقال: أفهمت يا هشام فهما تدفع به أعداءنا والملحدين في دين الله عز وجل غيره وتبطل شبهاتهم؟ فقال هشام: نعم فقال عليه السلام له: وفقك الله يا هشام)[٣].

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام لمحمّد بن حكيم (احد اصحابه): كلم الناس وبين لهم الحق الذي أنت عليه وبيّن لهم الضلالة التي هم عليها)[٤] وقد وردت كثيرٌ من الروايات عنهم عليهم السلام في تحديد ضوابط الجدل الديني وتأشير ملامحه لابعاده عن ان يكون جدلا عقيما لا منتجا ومنع دخوله في متاهات المذهبية وخوضه فيما يجب عدم الخوض فيه كالذات الالهية أو وقوعه في مغبّة التجرد عن مرجعية النصّ أو تصدّي غير المؤهلين للجدل.

فمن ذلك مثلا ما في باب الجدل في ذات الله ما روى عبد الحكيم القصير قال: (سألت أبا جعفر (الإمام الباقر عليه السلام) عن شيء من التوحيد. فرفع يديه إلى السماء وقال: تعالى الله الجبار من تعاطى ثمّ هلك)[٥].

وعنه عليه السلام أيضا أنه قال (دعوا التفكر في الله فإنّ التفكر في الله لا يزيد إلا تيها لأنّ الله تبارك وتعالى لا تدركه الابصار ولا تبلغه الاخبار)[٦].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال ولم يزل. وقال عليه السلام: إياكم والتقليد فإنّ من قلد في دينه هلك[٧].

وعنه عليه السلام أيضا أنّ أحد أصحابه قال له: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: ويل لأهل الكلام يقولون هذا

(٢) المجلسي: البحار ج٢ حديث ٤٢.

(٣) المفيد: تصحيح الاعتقاد (مطبوع مع اوائل المقالات) ص ٢١٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الصدوق: التوحيد ٤٥٦.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المفيد: تصحيح الاعتقاد ٢١٩.

ينقاد وهذا لا ينقاد وهذا ينساق وهذا لا ينساق وهذا نعقله وهذا لا نعقله فقال عليه السلام: إنّما قلت ويل لهم إذا تركوا قولي وصاروا إلى خلافه)[١].

وممّا في باب نهي غير المؤهلين عن الخوض في الجدل أنّه عليه السلام نهى رجلا عن الكلام وأمر آخر به. فقال له بعض أصحابه: جعلت فداك نهيت فلانا عن الكلام وأمرت هذا به؟ فقال عليه السلام: هذا أبصر بالحجج وأرفق منه)[٢].

وفي رواية اخرى أنّه دعا جماعة من أصحابه فتكلموا في حضرته ثم تكلّم هشام بعدهم فأثنى عليه ومدحه وقال له: مثلك من يكلّم الناس)[٣].

ثالثا: منهج التوصيل

يتأكد هذا المنهج عند الأئمة وتتبين تطبيقاته بوضوح في طول مراحل حياتهم عليهم السلام ابتداءً بالإمام علي عليه السلام حتى آخرهم فيما تجده مرويا عنهم من آلاف الروايات الواردة في المدونات السابقة الذكر وغيرها مما كان هدفه تجسيد ملامح العقيدة بأصولها كافة حتى لم يفلت موضوعٌ أو جزئية تمثّل ملمحا من ملامح العقيدة إلا وبيّنوا الفهم الصحيح له واصّلوا جذوره القرآنية وفصّلوا ما يتفرع فيه من الكلام حتى كوّن ذلك منظومة كلامية لا نجد لها مثيلا عند أيّة فرقة من الفرق الكلامية باستحضار خصوصية دور الأئمة عليهم السلام في أصول مذهب الإمامية وطبيعة خصوصيتهم الدينية والعلمية.

والرجوع إلى المظانّ السابق ذكرها يؤكد هذا القول ويكشف عن الملامح التطبيقية لهذا المنهج. وقد تصدّى هذا البحث لإيراد كثير من المرويات عنهم عليهم السلام منها ما سبق ذكره وإن ترك كثير منها لمقتضيات الضبط والاختصار لاسيما وأنّ تلك المدونات الكبرى قد أغنتنا عن الخوض في تفاصيلها فيحسن الرجوع إليها.

(١)ظ الكليني: الكافي (الاصول) ١: ١٧١المفيد: تصحيح الاعتقاد ٢١٨.

(٢) المفيد: تصحيح الاعتقاد ٢١٨.

(٣) المصدر نفسه.

الفصل الثاني

موقف متكلمي الإماميّة من التعامل مع ظاهر النصّ ومتشابهه

تمهيد:

يمثل القرآن الكريم حجة الله على عباده ومعجزته الكبرى وطريق إثبات رسالة نبيه صلى الله عليه وآله، وهو منهاجه وناموسه المنزل لهداية البشرية إلى مافيه صلاحها، ورسم طريق حياتها، وتنظيم صلتها بالخالق. وترتيبا على ذلك فلا بدّ ان تتوافر في هذا الخطاب إمكانات التوصيل للمخاطب بما يتناسب وقدراته على الفهم ما دامت الغاية منه هي الهداية. قال تعالى ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين.. ﴾ (سورة البقرة/٢).

وهذه الحقيقة تتأكّد ضرورتها من خلال إشارة النبي صلى الله عليه وآله فيما رواه الإمام الصادق عليه السلام أنّه صلى الله عليه وآله قال[٤]: (نُحْنا معاشرَ الانبياء لنكلمَ الناسَ على قَدْرِ عقولهم)

هذه القضية العامّة تحتاج لتحقق صدقها في مورد التطبيق إلى معاضدة عواملَ أخرى ينبغي ملاحظتُها. لذلك لا بدّ من الالتفات إلى خصيصتين مهمتين من خصائص النصّ القرآني ينبغي التعامل معه باستحضارهما من قبل عموم المخاطبين بالنصّ والمتصدّين لفهمه واستنباط أصول العقيدة منه على وجه الخصوص، وهما:

الأولى: ان هذا النصّ نزل بلغة العرب، وخوطب به المتحدثون بهذه اللغة. وهو مايمثل سنة إلهية جارية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (الاحزاب/٦٢) حيث يقول تعالى: ﴿ ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (ابراهيم/٤).

وبالتالي فإنّ على المتصدي لفهم هذا النصّ وتدبره أن يجريَ في تعامله مع معانيه كما يجري مع تلك اللغة التي نزل بها من صيغ التعبير وضوابطه، وأسسه ودلالاته، وعليه أن يستوعب معاني نصوصه في ضوء هذه الأُسس وهذا يؤشر ضرورة أن يفهم المتصدّي لذلك ، فالكلام – أيّ كلام – له حالتان هما:

١ – خفاء الدلالة، وإجمال المعنى. وهي حالة يعبّر عنها قرآنياً بـ (التشابه)؛ إذ لا يمكن الاطمئنان إلى تعيين أحد المعاني المحتملة للكلام على أنّه هو المعنى المراد حقيقة من المتكلم بالنصّ، كما لو

(٤) اصول الكافي ١: ٢٣.

تعمّد المتكلم الاجمال والاخفاء في كلامه، بحيث لم يمكن الافصاح عن مراده منه، أو أنّه يتعمد ان يكون كلامُه مفتقرا إلى قرينة يعتمد ايضاحه عليها، تكون خافية على السامع، وبدونها لا يفهم مراده، ويبقى الكلام في حيّز (التشابه).

٢ – وضوح الكلام في دلالته. ويعبر عنه قرآنيا بـ(الإحكام)، وله درجتان:

أ – النصّ: وهو ما لا يحتمل فيه الخلاف بالمرة[١] كقوله تعالى ﴿ قل هو الله احد ﴾ (الاخلاص/١).

ب – الظاهر: وهو ما يُحتمل فيه الخلاف بين مراد المتكلم من كلامه، وفهم السامع، وإن كان هذا الاحتمال لا يرقى إلى مستوى التأثير في دلالة اللفظ في معناه المراد عند المتكلم.

وممّا تسالم عليه العلماء كافّةً العملُ بظهورات الكلام وحجيته في تعيين المعنى المراد من المتكلم، وهذا ما سار عليه الناس في مخاطباتهم. فما من كلام يطلقه المتكلم الا وهو مورد للعديد من الاحتمالات التي يمكن أن تكون مقصودة من الألفاظ، أو من القرائن التي تكتنفها ولكن حيث يكون أحد هذه الاحتمالات هو البارز من بينها، فإن السامع يأخذ به، ويعتبر الكلام ظاهراً فيه، ويترك الاحتمالات الأخرى، ويلزم المتكلم به كما ألزمَ المتكلمُ السامعين به.

وبدون هذا لا يمكن لمسيرة الحياة أن تمضي بسهولة ويسر، ويصبح من المستحيل على البشر التفهّمُ والتفهيمُ فيما بينهم.

الثانية: إنّ القرآن الكريم، وان كان منزلاً لهداية البشر كما نصّ في آياته، وهي غايته الكبرى، إلاّ انّه لا بدّ من ان يُعرف كون نزوله على الرسول ﷺ، وإنّه يمثل الناموس والمرجعية للمنظور الاسلامي بكل جوانبه، ولجميع حاجات الحياة المستنبطة منه؛ فإنّ الله تعالى أوكل إلى نبيه ﷺ مهمّة التفريع والتفصيل لجوانب هذا المنظور الاسلامي عقيدة ونظاماً تعبدياً؛ لتكون السنة النبوية بذلك شارحةَ القرآن ومبينته[٢].

(١) انظر المحقق الحلي (جعفر بن محسن بن يحيى ت ٦٧٦ هـ): معارج الاصول ص٥٢، طبع حجر ايران ١٣١٠ هـ

(٢) انظر للتفصيل الكليني: الكافي (الفروع) ٣: ٢٧١ / ٣: ٥٠٩ / ٤: ٢٤٥، القرطبي: الجامع لاحكام القرآن مطبعة دار الكتب المصرية ط٢ القاهرة ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م وما ينبغي في روايته ومحله ٢: ٢٣٤ المكتبة السلفية المدينة المنورة ط٢ ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

وحينئذ، فليس غريباً ان يحوي القرآن الكريم من ضمن ما يحويه المحكمَ والمتشابهَ – من حيث الدلالة – وهذا ليس تناقضاً في الغرض الإلهي بين الهداية المستلزمة للبيان، ووجود المتشابه فيه، فالناس ليسوا جميعا في مرتبة واحدة في فهم النصّ القرآني، والقدرة على استيضاحه.

ومن هنا يثبت ما للنصّ في حالتي الظهور والخفاء – من خصائصَ وإمكانات في التعبير تستدعي تدبّراً وتفهّما، وعمقا في النظرة اليه، واستحضارا لضوابط التعامل معه.

وهذا ما يؤكد أهمية تعرف آفاق النظرة إلى ظواهر القرآن ومتشابهاته عند المتكلمين عموما، والإمامية منهم ما دام هذا المبحث قد خُصِّص لاستبيان موقفهم في التعامل معها.

المبحث الأول: ظاهر القرآن عند متكلمي الإمامية

الظهور كما تمّت الإشارة إليه مرتبة من مراتب البيان في النصّ. وهو واقع في القرآن الكريم في ضمن المحكمات من الآيات فهو قسم من المحكم. وقسيمه الآخر هو النصّ الذي لا يقبل إلاّ معنى واحدا في حين يحتمل الظاهر أكثر من معنى. وسنتعرّف أهمية الظاهر وأثره عند متكلمي الإمامية بواسطة مجموعة مقاصد:

المطلب الأول: الظاهر لغةً واصطلاحاً

١- الظاهر في اللغة:

ترد مادّة (ظهر) في اللغة العربية، ويكون المراد من أصل الظَّهْر من كل شيء هو خلاف البَطْن[٣] والظاهر خلاف الباطن. ظَهَرَ يَظْهَرُ ظُهُوراً، فهو ظاهرٌ وظَهير[٤]. وظَهَرَ الشيءُ ظُهوراً، أي تبيَّـن، واتضح معناه، فالظاهر هو الواضح المنكشف، البارز بعد الخفاء[٥].

والظواهِر: أشراف الارض[٦] أي ما علا منها، وارتفع، فبانَ من بعيد. لذلك يقال: قريش الظواهر، وهم الذين يتزلون ظهر مكة.

وواضح أنّ المعنى اللغوي للظهور يؤكّد خصوصية البيان، والوضوح والبروز، وهي أمورٌ عامةٌ مشتركةٌ بين كلّ ما هو ظاهرٌ في معناه المعيَّن.

(٣) انظر: ابن منظور: لسان العرب ٤: ٥٢٠ مادة ظهر، الجوهري تاج اللغة وصحاح العربية ٢: ٧٣٠ مادة ظهر.

(٤) لسان العرب ٤: ٥٢٣.

(٥) الفيروزابادي: القاموس المحيط ٢: ٨٢، الزبيدي: تاج العروس ١٢: ٤٨٥ الكويت ١٩٧٤.

(٦) الزبيدي: تاج اللغة ٢: ٧٣٢ (مادة ظهر).

٢- الظاهر في الاصطلاح:

لمّا كان الظهور أمراً متعلّقا بمرتبة البيان في النص، ووضوح الدلالة، وانكشاف المراد من اللفظ، ومن ثمّ تنبني عليه عملية التعامل مع النصّ لاستنباط المراد منه. وبما أنّ هذه القضية شأن مشترك، وغاية تقع في دائرة بحث المستنبط للفروع، أو الأصول، والأول منهما الاصولي، والثاني المتكلم. فلا بدّ من استبيان تصور الاتجاهين في تحديد المصطلح. ولأنّ اقطابَ المذهب الإماميّ ممّن اخترناهم نموذجاً للبحث التطبيقي تمثيلا للمذهب هم أنفسهم من أقطاب البحث الاصولي أيضا. لذا ارتأى الباحث تحديد المصطلح وأبعاده من خلالهم، والابتعاد عن التوسع المؤدّي إلى الإطالة بما لا تحتمله خصوصيات البحث.

نلاحظ أنّ الظهور يرد عند الاصوليين في نطاق بحثهم في دلالة النصّ على المعنى ومرتبتها بين الوضوح والخفاء؛ فنجد أنّهم يقسّمون الكلام من هذه الناحية على: الواضح والخفي – وهو ما تبين لنا اتصاف النصّ القرآني به أيضا – والمائز بينهما هو الاستعانةُ على فهم النصّ بقرائنَ خارجية (فما لم يحتج إلى ذلك فهو واضح وإلا فهو خفي)[١].

والظاهر عندهم (أحد الأقسام المتعددة للواضح الدلالة، يشترك معه في ذلك النصّ والمفسّر)[٢].

وفي حدود الاتجاه الأصولي في بحث الظاهر عند متكلمي الإمامية نلاحظ لتحديد المصطلح عندهم أبعادا متعددة:

فالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) يمثل الظاهر عنده (المطابق لخاصّ العبارة عنه تحقيقاً لعادات أهل اللسان؛ فالعقلاء العارفون يفهمون من ظاهر اللفظ المراد)[٣] ففهم أهل اللغة العارفين بها لمعنى معين على أنّه مراد المتكلم، حسب ضوابط تلك اللغة وأصولها يحقّق حالة الظهور في النصّ في نظر الشيخ المفيد.

ويبتعد تلميذه الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) عن التفصيل والتوسّع؛ ليحدد الظاهر بأنّه (ما أمكن أن يُعرف المرادُ به)[٤].

ونلاحظ هنا إلتفاتة مهمة في تحديده احتمالية إمكان معرفة المراد به إلى خصوصية الظاهر في الدلالة الظنية التي لا ترقى إلى مستوى القطع، وإنّما تتعدد احتمالات المعنى، ويكون الظاهرُ أرجحَها.

أمّا عند الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) فنلاحظ استفادة الأصل اللغوي للظهور؛ إذ الظاهر عنده (ما يظهر المراد به للسامع. فمن حيث ظهر مراده، وصف هو بأنّه ظاهر)[٥] فأيّ معنى من المعاني المتعددة المحتملة أظهر المراد للسامع، كان ذلك هو الظاهر.

وهذا التحديد يؤكّده العلامة الحلّي (جمال الدين الحسين بن المطهر ت ٧٢٦هـ). فالظاهر عنده: ما كان راجحا من المعاني، إذ يحتمل اللفظ معنيين أو أكثر الراجح منها هو الظاهر. أمّا الوضع اللغوي، أو العرفي، أو الاصطلاحي فيمثّل الدليل على تلك الارجحية وذلك الظهور)[٦] وكلامه الأخير هذا يعطي معيارية مهمة لأصول اللغة، ومراتب العارفين بها في دعم معنىً معين، وترجيحه على غيره للتعبير عن المراد.

وفي موضع آخر نجد العلامة الحلّي يضيف ضابطا آخر في التحديد، حين يرى أنّ الظاهر: هو ما دلّ على مراده مع الحاجة إلى التأويل؛ ليكون أغلب على الظنّ. وذلك من خلال تعريفه للتأويل بانّه (احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من الذي دلّ الظاهر عليه)[٧].

ويمكن من التعريفات السابقة وربطها بالأصل اللغوي انتزاعُ أمرين:

١ – إنّ الجامع بينها – وهو ما يشترك فيه أغلب الاصوليون – الظاهر وهو ما دلّ على معنىً واحد، ولم ينفِ احتمال غيره، وهذا القيد هو الفارق بين الظاهر، وقسيمه النصّ.

٢ – إنّ الظهور وصف إضافي نسبيّ، فالألفاظ لمّا كانت قالباً للمعاني. بحسب التخاطب، فكأن المتكلم قد أحضر المعنى نفسه في ذهن السامع بكلامه. وإنّ هذا أمر يعلم بالوجدان،

(١) ظ: بدر المتولي عبد الباسط: اصول الفقه على مذاهب اهل السنة والإمامية ص ٢١١ مطبعة دار المعرفة بغداد ط١ ١٩٥١ م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: تذكرة الاصول: ص ١٦٩، طبع حجر، ايران ١٣٢٢ هـ مطبوع مع كنز الفوائد للكراجكي ت ٤٤٩ هـ

(٤) الذريعة في اصول الشريعة: ١: ٣٩٢، طهران ١٣٤٦ هـ

(٥) عدة الاصول: ١٥٤ طبع حجر، طهران ١٣١٧ هـ

(٦) مبادئ الوصول الى علم الاصول: ٦٥ (بتصرف) تحقيق عبد الحسين البقال مطبعة الاداب /النجف ط١ ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م.

(٧) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ففهم السامع للمعنى يعتمد علمه بوضع ذلك اللفظ لذلك المعنى، وبالتالي فإن الظنَّ هو مرتبة حجية الظاهر. ومن الطبيعي حينئذ (ان تكون له مراتبُ مختلفةٌ باختلاف الاشخاص والمعاني)[١]، ومن هنا صار واضحاً – عند الاصوليين – إنّ دلالة الظاهر على المعنى دلالة ظنية، لان التالي للقرآن حيث تتبين له المعاني التي يظن انها هي المقصود والمراد من النصّ المتلو، فانه في الوقت نفسه يحتمل أن يكون هناك معان أخرى هي المقصودة من النصّ، ووجود الاحتمال يعني ظنية المعنى وهذا ما يتفق عليه أغلب أصوليي مذاهب الشافعية والحنابلة والمالكية، والإمامية[٢].

المطلب الثاني: ظاهر القرآن وباطنه عند الإمامية

تحتل قضية الظواهر القرآنية أهميةً كبيرةً في فهمه. وهي من المسائل المهمّة في مناهج التفسير المختلفة، وتكاد تمثل معياراً مهمّاً في تحديد المنطلقات الفكرية الرئيسة المحددة لأبعاد أي منهج فكري عقائدي.

ونلاحظ أنّ المسلمين انقسموا على عدة اتجاهات رئيسة في موقفهم من ظواهر النصوص يمكن إجمالها في[٣]:

١ – من قال بوجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ مطلقاً حتى لو خالف العقل.

٢ – من قال بجواز التأويل، بل بوجوبه – في بعض الحالات – اذا تصادم الظاهر مع العقل.

٣ – ومنهم من قال بجواز التأويل مطلقاً، ولو كان الظاهر موافقا لحكم العقل، وهؤلاء جماعة الصوفية.

فمن تمسك بالظاهر تمسكاً حرفياً: الظاهرية، والحشوية الذين وقفوا بجمود على ظواهر النصوص، وصل بهم إلى حدّ انكار المجاز في القرآن بحجة انه خلاف الظاهر، كما سيمر بنا في المباحث القادمة.

ونلاحظ أنّ الباطنية وجدوا في الحديث المروي عن الرسول ﷺ (ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن)[٤] عالما فسيحا فاطلقوا لخيالاتهم العنان، وساحوا بأذواقهم إلى آفاق بعيدة إلى درجة اختفت معها مدلولات الكلمة العربية التي تشكل مادة الخطاب القرآني بما يفقد النصّ أية صلة بالحياة العملية وتشريعاتها، وليفقد بالتالي عنوانه الأساسي وهو كونه كتاب هداية، ومصدر تشريع ومنهج حياة. وهذا هو طابع أغلب الصوفية، وكذلك الاسماعيلية والغلاة.

ولا شكّ أنّ بلاء التمسّك والجمود على ظواهر النصوص ليس بأقلّ سلبية، واثراً تراجعياً – عن قيمة النصّ ومرجعيته، وآفاقه المفتوحة – من المتمسّكين ببواطن الآيات وتأويلاتهم التي تقطع عن النص كل صلة بالحياة، وتحيد به إلى ما يبعده عن غاياته وآفاقه التي يغطيها فالاتجاهان بين الإفراط والتفريط وذلك أنّنا نلاحظ أنّ النصّ القرآني يوجد فيه ظواهر مقصودة في خطاباته، كما في قوله تعالى مثلا: ﴿ اقيموا الصلاة ﴾ (سورة البقرة/٤٤) كما توجد فيه أيضا آيات لا يراد بها معانيها اللغوية الظاهرة المبذولة، وإنّما قصد منها معانٍ عرفية يتقبّلها عرف التخاطب على سبيل التجوّز والتشبيه كآية: ﴿ يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ (سورة البقرة/١٩)، وكقوله تعالى ﴿ يد الله فوق ايديهم ﴾ (الفتح/١٠)، وعند البحث في الاتجاه الإمامي، وموقفه من ظواهر النصوص القرآنية، نلاحظ – فيما يرد عند أقطابهم المحققين – اعتمادَ ظواهر القرآن مستندين في ذلك إلى ثلاثة مدارك مهمة من الأدلّة تتمثل في محكم الكتاب، وما صحّ عن أهل البيت عليهم السلام، والبراهين العقلية، ولا مجال هنا للخوض في تفصيلات استدلالاتهم. ويحسن الرجوع إلى الكتب الأصولية لاستقصاء البحث فيها، وان كانت بعض ملامح ذلك ستتبين خلال التطرق إلى أسس التعامل مع الظاهر فالشيخ المفيد يستفيد الدليل اللغوي وأصل نزول القرآن بلغة العرب باعتباره موجبا مؤثرا لضرورة اعتماد حجية ظواهر القرآن الكريم، فيقول:

(١) ظ: العلامة الحلي: نهاية الوصول الى علم الاصول (مخطوط) القسم الثاني ورقة ١٣٠ مكتبة امير المؤمنين / النجف تحت رقم ت ١٤٨٩: ٥ اصول.

(٢) الإمام الشافعي: الرسالة ص ٤٠١، تحقيق احمد محمد شاكر مطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٤٠ هـ ابن قدامة: روضة الناظر وجنة المناظر في اصول الفقه على مذهب الإمام احمد بن حنبل ص ٩٢ المطبعة السلفية / مصر ١٣٧٨ هـ السيد عبد الاعلى السبزواري: مهذب الاحكام في بيان الحلال والحرام ٢: ٧٢ مطبعة الآداب النجف / ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م، وغيرها.

(٣) محمد جواد مغنية: فلسفات اسلامية ٤٤٦.

(٤) الطوسي: التبيان ١: ٩.

لا شكّ أنّ النبي ﷺ لم يخترعْ لنفسه طريقة خاصّة لإفهام مقاصده، وانّه كلّم قومه بما أَلِفوه من طرائق التفهيم والتكلم، وإنّه أتى بالقرآن؛ ليفهموا معانيه، وليتدبروا آياته فيأتمروا بأوامره، ويزدجروا بزواجره

(إنّ القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، قال تعالى: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ (الشعراء/١٩٥).

وقال تعالى: ﴿ قرآناً عربيا غير ذي عوج ﴾(الزمر/٢٨).

وقال تعالى: ﴿ ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ (فصلت/٤٤) فإذا ثبت أنّ القرآن نزل بلغة العرب، وخوطب به المكلفون في معانية على اللسان وجب العمل بما تضمنه على مفهوم كلام العرب دون غيرهم)[١] وليؤكد دلالة الظواهر القرآنية وحجيتها، وضابطيتها المعتمدة؛ فإنّه يضع تحديدا مهما للعبور من الظاهر إلى اعتباره استعمالاً مجازياً، أو استعارياً. وبالتالي يقول (فمن تأول القرآن بما يزيله عن حقيقته، وادّعى المجاز فيه، أو الاستعارة بغير حجّة قاطعة، فقد أبطل بذلك، وأقدم على المحظور، وارتكب الضلال)[٢].

وقد أكد السيّد الخوئي هذا الاتجاه الإمامي في اعتماد حجية ظواهر القرآن انطلاقا من خصوصية القرآن نفسه، ووظيفة النبي ﷺ في البلاغ والبيان إذ يقول: (لا شكّ أنّ النبي ﷺ لم يخترعْ لنفسه طريقة خاصّة لإفهام مقاصده، وانّه كلّم قومه بما أَلِفوه من طرائق التفهيم والتكلم، وإنّه أتى بالقرآن؛ ليفهموا معانيه، وليتدبروا آياته فيأتمروا بأوامره، ويزدجروا بزواجره. وقد تكرر في الآيات الكريمة ما يدل على ذلك ... بوجوب العمل بما في القرآن ولزوم العمل بما يفهم من ظواهره)[٣].

وقد قطع الشيخ محمّد جواد مغنية جازماً بأنّ الإمامية يحرّمون تفسير القرآن تفسيرا باطنيا)[٤]

والذي عند الإمامية في قضية ظهر القرآن وبطنه، أنّه كما توجد لظاهر النصّ قيمة فكذلك للباطن، والقرآن كما أنّه يستحيل وقوع التناقض بين آياته – وليس بين ظواهره فقط – فإنه لا يقع اختلاف، أو تناقض بين ظواهره وبواطنه، وبالتالي (فظاهر القرآن عندهم حجة، كما أنّ باطنه حجة. ولكن بنحو لا يكون معارضا لظاهر القرآن)[٥].

فبعد أن ثبتت حجية الظاهر، فإنّ الباطن القرآني المقبول هو الموافق للظاهر، أو الساكت عنه الظاهر؛ إذا أيّدته الأدلة الخارجية أمّا فهم الباطن مخالفاً للظاهر فليس بحجة، ولا يُقبل ممن جاء به فالإمامية في منهجهم لفهم النصّ مع إطلاق المجال أمام المفسر لإعمال عقله، وبذله الجهد في محاولة فهم الآيات الكريمة التي لم يرد نصّ في تفسيرها. وبالتالي فلظواهر القرآن حجية ولا يقبل تحديد خصوص مرجعية تفسيرها، وكشف دلالاتها بالأئمة عليهم السلام أو مخصوصين غيرهم بما يعتمد باعتباره دعوة على ان القرآن قصد إبهامه؛ لتوكيد الحاجة للإمام، فهذه دعوى مناقضة للقرآن نفسه الذي يدلّ على أنّه نزل تبيانا لكل شيء، وهدى وبلاغاً.

والنتيجة، فإنّ من أسقط ظواهر القرآن لا يمتّ للامامية بصلة، وهو بين طرفي الإفراط والتفريط – سابقي الذكر – إمّا حشوي، أو باطني ولذلك المنهج آثار خطيرة على الفكر الاسلامي. ولا أساس لدعوى بعض الباحثين البعيدة عن الموضوعية – القائمة على إطلاق الاقوال جزافاً دون الرجوع إلى الاستقراء الكامل للآثار والاقوال في اتهام الإماميّة في ربط الظاهر بالباطن، وأنّهم (يعتقدون ان مثل هذا الربط لا يكفي في حمل الناس على ان يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الديني الذي يشبه الإرهاب الكنسي للعامّة في العصور المظلمة من حمل الناس على ما يوحون به اليهم، بعد ان حظروا عليهم إعمال العقل، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية)[٦].

كما أنّنا من جانب آخر نجد عند الاتجاهات الاسلامية الأخرى من يتمسّك بالباطن إمّا مطلقاً أو بالتوفيق بينه، وبين الظاهر، واعتبار ان كلاً منهما مرادٌ. لكننا لا نجد بين الإمامية من وقف عند الظاهر وتمسك به تمسكا حرفياً إلى حدّ الجمود كما وقع في ذلك الظاهرية من أهل السنة بانكارهم المجاز. وسنتبين ملامح ذلك بوضوح عند استعراض التطبيقات الواردة عن متكلميهم في موضعها الخاص من هذا البحث.

(١) ظ الرسالة العددية ٥، مطبوع ضمن ((مصنفات الشيخ المفيد)) بمناسبة الذكرى الالفية ايران ط ١ ١٤١٣ هـ

(٢) الافصاح في إمامة امير المؤمنين عليه السلام: ٨٩ المطبعة الحيدرية / النجف ١٣٨٦ هـ

(٣) انظر للتفصيل البيان في تفسير القرآن ٢٨١ – ٢٩١.

(٤) التفسير الكاشف: ٧: ٢٠٩.

(٥) الطباطبائي: الميزان ١: ٧.

(٦) الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون ٢: ٢٩، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ١، ١٣٨١هـ – ١٩٦١م.

المطلب الثالث: أسس التعامل مع ظواهر القرآن في البحث الكلامي عند الإمامية

توطئة:

يلاحظ الباحث في موقف المتكلمين من ظواهر القرآن أنّهم حيث يستقرئون النصّ القرآني للكشف عن دلالاته في مجال تأسيس الأصول العقائدية، فإنّ علاقتهم بالظاهر تتفرع على اتجاهات مختلفة كلّ حسب المنطلقات الفكرية والخصوصية المنهجية التي تشكل الأساس المهم، ومنظومة المعايير التي على النتاج الفكري أن يتواءم معها، ويبتعد عن أية تقاطعات تحيد به عن خصوصية المذهب، فهنا التقاطع مرفوض، بل إنّ الحياد باعتباره حالة وسطى لا يمكن قبوله خصوصا مع الأصول الكبرى التي تكوّن هيكلية البناء الفكري للمذهب، ولذا نلاحظ مثلا أنّ إطلاق صفة الإمامي على شخص فذلك يعني انه لابدّ ان يخضع للاصول الكبرى للمذهب والتي حدّدها الشيخ المفيد كما سبق لنا ذكره في العرض التاريخي[1] وهذا ما ينطبق أيضا على النسبة للاعتزال فيقال معتزلي لمن حدده الخياط[2] فقضية الموقف من ظاهر النصّ تمثل ركيزة مهمة من ركائز المنهج الكلامي ويلاحظ السعة الكبيرة للبحث فيها، وملامحها البارزة التأثير في استنباط جزئيات كل أصل من أصول العقيدة على اختلاف المذاهب في تحديد مجموعها، وإن اتفقوا على ثلاثة منها كأسس مشتركة هي التوحيد، والنبوة والمعاد، إلا أنّ أكثر ما ترد إشكاليات التعامل مع الظواهر بما ينتج عنه كثرة الاختلاف والتقاطع في موضوعي الصفات الإلهية (الخبرية) وعصمة الانبياء، فأخذ الآيات على ظواهرها ينتج عنه في موضوع الصفات الإلهية نسبة الجوارح والاعضاء والوقوع في مغبّة التشبيه والتجسيم، كما حصل عند المشبهة والمجسمة، وأخذها على ظاهرها في عصمة الانبياء يعني نسبة أفعال تخدش موضوع العصمة المطلقة، وتنسب الوقوع في بعض الذنوب والمعاصي، أو النسيان والخطأ الخ. ولذلك اختلفت المذاهب الكلامية الاسلامية في مرتبة العصمة بين الاطلاق والتقييد، كما اختلفوا في وقت حصولها. إلاّ أنّ آثار هذا الاختلاف في حدود عصمة الانبياء لم تكنْ له تلك الآثار البالغة الأهمية، والتأثير في موقف الفرق الاسلامية من بعضها، وخصوصيات منهج كلّ منها كما حصل مع الاختلاف في الموقف في حدود الصفات الالهية إذ يتقاطع الظاهر من النصّ مع ظواهر أخرى، أو مع المرجعيات التي يعود إليها كلّ مذهب كلامي، أو يتقاطع مع الدليل العقلي، وأصول المذهب ومنطلقاته، فالموقف من هذه القضية هنا يمثّل الركيزة الأساس للمذهب الكلامي وينعكس بمعاييره على كلّ جوانب البحث عند المتكلم وفي هذا القسم بالذات من الظواهر القرآنية نلاحظ حضور هذه الركيزة باعتباره معيارا فاصلا بين المذاهب الاسلامية؛ اذ نجدهم قد انقسموا على عدّة اتجاهات يمكن إجمالها في[3]:

١- الإثبات مع التكييف، أو الوقوع في مغبة التجسيم، وتشبيه الخالق بخلقه

وهو ما زعمته المجسّمة والمشبهة ممّن قالوا: إنّه تعالى له يدان، وعينان، ووجه، ويخضع للقرب، والبعد ... الخ يقول الشهرستاني (أما مشبهة الحشوية فقد أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وإنّ المسلمين المخلصين يعانقونه سبحانه في الدنيا والآخرة.. كذا)[4].

٢- الاثبات بلا تكييف، أو تشبيه

كما هو موقف الأشعري، ومن تابعه، ويقوم على اجراء معنى ظاهر الآية من دون تحديد لكيفية معينة، تحاشيا للوقوع في التشبيه، أو التعطيل. يقول الاشعري[1]: (إن لله سبحانه وجهاً بلا كيف)، كما قال: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ (الرحمن/٢٧)، وإنّه له يدين بلا كيف، كما قال ﴿ خلقت بيديّ ﴾ (سورة ص/٧٥) وهذا هو موقف السلف المنقول عنهم.

(١) يقول الشيخ المفيد (.. فهو علم على من دان بوجوب الإمامة، ووجودها في كل زمان، وأوجب النص الجلي، والعصمة والكمال لكل إمام ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي عليه السلام، وساقها الى الرضا علي بن موسى عليه السلام..) اوائل المقالات ص ٤٤.

(٢) الخياط المعتزلي: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص ٢٦ تحقيق: د ينبرج، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٩٥٢ م يقول: (وليس يستحق احد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالاصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فإذا كملت في الانسان هذه الخصال فهو معتزلي).

(٣) للتفصيل يحسن الرجوع الى الزركشي: البرهان ٢: ٧٨ دار احياء الكتب العربية /القاهرة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م ط١، ابن عربي (محي الدين ت ٦٣٨) رد المتشابه الى المحكم ص٥٧ مقدمة المحقق نقلا عن كتاب ابن عربي مراتب الحروف) القاهرة مطبعة الصدق الخيرية ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م، علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي ص٢٠.

(٤) الملل والنحل ١: ١٠٥.

٣- التفويض

وهو موقف بعض الأشعرية الذي يقوم على إجراء هذه الصفات كما وردت في ظاهر الآيات القرآنية مع تفويض المراد منها إليه تعالى. ويصف الشهرستاني هذا الاتجاه وأصحابه فيقول: (إنّ جماعة كثيرة من السلف يثبتون صفات خبرية مثل اليدين، والوجه، ولا يؤولون ذلك إلا أنّهم يقولون: إنّا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (طه/٥)، ومثل قوله ﴿ لما خلقت بيديّ ﴾ (سورة ص/٧٥)، ولسنا مكلّفين بمعرفة تفسير هذه الآيات. بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بإنّه لا شرك له وذلك قد أثبتناه)[2].

وهذا ما يميل إليه الفخر الرازي بأن يضع معيارا منهجيا كلّيا في التعامل مع هذه الظواهر يقوم على عدّها من المتشابهات مع القطع بأنّ المراد ليس الظاهر منها. يقول (هذه المتشابهات يجب القطع بأنّ مراد الله تعالى منها شيء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض في تفسيرها)[3].

وهذا المذهب الذي عليه أغلب الأشاعرة المتأخرين عن الأشعري، كالباقلاني، والجويني، والبغدادي. إلاّ أنّنا وجدنا – كما سيتبين في فصل الأشعرية – أنّهم كثيرا ما لجأوا إلى تأويل العديد من الآيات، ومثّلت عندهم حالات تطورية في المنهج تنحو إلى محاولات عقلنة الموقف منها، وكوّنت مراحل متعددة للمنهج الأشعري.

٣- التأويل

وهو الاتجاه الذي اشتهرت به الإمامية والمعتزلة مع اختلاف في الأُسس والمنطلقات والمعايير التي تتحكم بآفاق التأويل، وتحدد أبعاد أهليته، ومرتبة مرجعيته التي تمثل آخر محاولة يلجأ اليها المتصدّي لفهم النصّ بعد المرور (بالمرجعيات) الأخرى. وهو باعتباره منهجا اشتهر عن المعتزلة أكثر من غيرهم لاعتبارات كثيرة كان بعضها آيديولوجيا يستهدف المسّ بالاتجاه الإمامي الذي هو شريك المعتزلة في التأويل. كما تدخلت اعتبارات أخرى من أهمها إنّ المعتزلة تطرّفوا فيه إلى حدّ بعيد حتّى خرجوا بالنصّ القرآني عن حاكميته وصارت تأويلاتهم تتعدّى الأُسس المنضبطة، وحكموا عقولهم في النصّ فذهبوا في سياحة كبرى بعيدة عن آفاقه. ويقوم منهجهم على تأويل نصوص الآيات وظواهرها مع قطع النظر عن مورد الصفات الخبرية فكل آية يجدون لها تعارضا مع اصولهم، فهي واجبة التأويل.

ولهذا المنهج خطورة ربّما لا تقل عن خطورة الجمود في المنهج المضاد القائم على إثبات تلك الصفات الخبرية على ما ورد في ظواهر الآيات بما استلزم التشبيه والتجسيم، إذ أدّى هذا التأويل المنفلت إلى الوقوع – في أحايين كثيرة – في مغبّة التفسير بالرأي بالحدود المنهي عنها، ودفع بعض اتباع الفرق الأخرى تبعا لذلك إلى اتهامات وصلت حدَّ الالحاد أو التكفير.

أمّا الإمامية فللتأويل عندهم أسس وحدود وضوابط، يمكن تلمّس أبعادها المنهجية على سبيل الإجمال في وصف أبي الفتح الكراجكي (محمّد بن علي ت ٤٤٩ هـ) لاعتقاد الشيعة الإمامية في الموقف من ظواهر الآيات إذ يقول: (ويجب أن يعتقد أنّ جميع ما فيه [أي القرآن] من الآيات التي يتضمن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، وإنّه يجبرهم على طاعته، أو معصيته، أو يضلّ بعضهم عن طريق هدايته، فإن ذلك كلّه لا يجوز حمله على ظاهره، وإنّ له تأويلا يلائم ما تشهد العقول به)[4]، وتسبقه في الأهلية (مرجعيات) أخرى تستنفد قبل اللجوء إليه، وتلك المرجعيات نفسها تحدد إطار دخول التأويل إلى ساحة البحث بعد أن تنتهي فاعلية الوسائل الأخرى وهو ما سيتبين في المباحث القادمة.

(١) الإبانة في أصول الديانة ص ١٨.

(٢) الملل والنحل ١: ٩٢-٩٣.

(٣) اساس التقديس ٢٢٣.

(٤) ظ: كنز الفوائد، ١: ٢٤٣، طبع حجر ١٣٢٢ هـ